

النقيض و الضد

حولنا و في أنفسنا

للأستاذ :



(أبو عبد الرحمن)

للأستاذ : وليد إبراهيم عبد الحميد دره


بسم الله الرحمن الرحيم

الْمُـقَـدِّمَـة

الحمد لله الذي لا إله غيره خالق كل شيء مالك يوم الدين ، و الصلاة و السلام على مَن لا نبيَّ بعده المبعوث من الله رحمة للعالمين ، ثم أما بعد :

قبل شروق الشمس كنتُ في الطريق أتلو سورة الواقعة ، و حين وصلت إلى الآية الكريمة التي يحدثنا فيها ربُّنا عن النار فيقول : "نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَ مَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ"(١) ، استوقفتني كلمة (مَتَاعًا) إذ الحديث عن النار ، و صادف أن كُنَّا في فصل الشتاء و البرودة شديدة ، و أحسستُ بمعنى أن تكون النارُ متعةً فعلا حين تكون ملجأً لِيَدِكَ التي توشك على التجمُّد ، فتفكَّ عنها بعض ما تلاقيه من برودة قارسة ، و تنعم من خلالها ببعض الدفء و الحرارة .

إذا مرَّت النارُ على أذهاننا فإنها ترتبط بفكرة الإحراق و التعذيب ، بينما هي في حياتِنا تجمع لنا الضِّدَّيْنِ فهي من وجه تكون نعيما و راحة ، و من وجه آخر تكون عذابا و شقاء ! و هذا هو السبب الذي دفعني لهذا البحث الذي تطلعون عليه عبر هذه الأوراق الآن .

أهل المنطق يقولون : "لا يمكن الجمع بين النقيضين ، إذ لا يمكن أن نصف الشيء بأنه موجود و معدوم في الوقت نفسه ، و الجمع بين النقيضين دليل جهل أو انحراف" ، و معلومٌ أنَّ المضادَّ يُظهِرُ جمالَ مُضادِّه ، و بحثي هذا يدور على أمثلة من التضاد و التناقض فيما حولنا و في أنفسنا نتفكر فيها ، فنجد بعضَها مقبولا و بعضها غير مقبول تمامًا .

إن العالم الذي نحيا فيه مليْءٌ بالمتضادات ؛ هناك الشهيق والزفير ، الليل والنهار ، البر والبحر ، الذكر والأنثى ، بَيْدَ أنَّ المعنى الجوهري لا يظهر إلا باجتماع الضِّدَّيْنِ ، فعملية التنفس لا تحدث إلا بالشهيق والزفير معًا ، والأيام لا تمضي إلا بتعاقب الليل والنهار ، و لا نسل إلا بذكر وأنثى معًا ، و كل ضد لا وجود له بدون ضد له ، فاجتماعهما يظهر جوهرهما ، إنها سنة الله في الكون و لا يمكن كسر سُنن الله إلا مِن الله لأنه الذي أوجدها ، "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ"(٢).

نحن في عصر قد تقلبت فيه الكثير من المفاهيم فتحوَّلت كثير من الأمور إلى ضدها ، و انقلبت الموازين في الرؤية عند كثيرين فأصبح – في نظرهم – الكاذب صادقا والصادق كاذبا ، والأمين خائنا والخائن أمينا ، و الصديق عدوا والعدو صديقا ... إلخ .

لعلَّ هذا يذكِّرُنا بما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عن رَسُولِ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : "سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سنُونَ خَدَّاعَاتٌ ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ ، وَ يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ ، وَ يَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ ، قِيلَ : وَ مَا الرُّوَيْبِضَةُ ؟ قَالَ : السَّفِيهُ يتكلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ"(٣)، و في رواية "... و ما الرُّوَيْبِضَةُ ؟ قال : الرجل التَّافِهُ في أَمْرِ العَامَّةِ"(٤).

أمعن النظر حولك تجد أشكالا من التضاد و التناقض ظاهرة في الكون و في نفسك بطريقة لا مشكلةَ فيها ، و إنها لمن إعجاز الله في خلقه و من الدلالات على قدرته و عظمته ، قال تعالى : "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"(١).

---

(١) سورة الواقعة : ٧٣ .

(٢) سورة الرحمن : ٣٣ .

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم برقم : ٨٥٦٤ .

(٤) السنن لابن ماجة برقم : (٤٠٣٦) .

ليس كلُّ التناقض مذمومًا و ليس كلُّ التناقض محمودًا ، و التعرض لهذه الظاهرة بالتفكُّر يزيل لبس التحديد الخاطئ و التعميم الخاطئ، و لنا في أنفسنا الكثير من العظات ، قال العقاد في إحدى قصائده :

صغيـرٌ يطلـبُ الكِبَـرا وشيخٌ وَدَّ لو صغـرا

وخالٍ يشتهى عـملا وذو عـملٍ به ضـجرا

ورَبُّ المال في تعـبٍ وفى تعـبٍ من افتـقرا

ويشقى المرءُ منهـزمًا و لا يـــرتاح منتصرا

ولا يرضى بلا عَــقِـبٍ فـإن يعقب فـلا وزرا

ويبغى المجدَ فى لَهَفٍ فـإن يظفـر به فـترا

ويحمد إن سـلا فــإذا تـولَّـه قلـبُــهُ زفــرا

إن الأمثلة على المتضادات و المتناقضات في بحثنا هذا كثيرة بفضل الله . استقيتها من خلال القرآن الكريم و الحديث النبوي و بعضها من خلال أخلاقنا و معاملاتنا ناقلا عن العلماء الأجلاء –فلا فضل لي في شيء– غير أنني أحيانا كنت أتدخل بالتصرف في الصياغة كي يتيسر الأمر علينا ، و أرجو من ذلك الإبانة عن جانب لعله يكون دافعا لحسن الاعتقاد و العمل .

نسأل الله سبحانه السداد و التوفيق للخير ، إنه ولي ذلك و القادر عليه وحده .

كتبه أبو عبد الرحمن :

وليد إبراهيم دره

في : غــــرة رمضــان ١٤٣٤ هـ.

الموافق : ٩ من يوليو ٢٠١٣ م.

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

*******–تعريفات

التناقض و التضاد من الإعجاز الإلهيّ

أَعْجَز أي : سبق فلم يُدرَك ، و الْمُعْجِزَة مفرد (المعجزات) هي : ما أَعجزَت الخصمَ ، والتاء المربوطة في نهايتها للمبالغة ، وسميت بذلك: لعجز الناس و قصورهم عن الإتيان بمثلها ، و إعجاز الشيء هو عدم القدرة على إدراكه(١) ، والمعجزة نوعان: معجزة حسية تدرَك بالحواس مثل : عصا موسى عليه السلام ، وناقة صالح عليه السلام ، و معجزة عقلية باقية وهي القرآن الكريم الذي تحدى الله سبحانه و تعالى به الثقلَيْن ، فقال عز من قائل: "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"(٢).

و سواء أكانت المعجزة ماديَّة محسوسة أو عقلية مُدرَكة فهي مِن عند الله المبدِع الذي لا يُعجِزُه شيء في الأرض و لا في السماء ، يضع لنا القوانين في الكون (السنن الكونية) يُجريها في خلقه فإذا شاء أنْفَذَها ، و إذا شاء عطَّلَها أو كسَرَها ، فعلى سبيل المثال :

- خلق الماء و هي في معلومِنا سبب لإيجاد المخلوقات و سبب لاستمرار حياتهم ؛ فنحن لا نستغني عنها و هي قوام حياتنا . حين أراد جل في علاه أن يجعلها سببا للموت و الإفناء كانت أداة الإغراق لقوم نوح عليه و على نبينا السلام .
- خلق النار و هي في معلومنا أداة للإحراق والتعذيب ؛ فنحن نتعوَّذ بالله منها و مما يتعلق بها من الحر و الزقوم و الغسلين و المُهْل ...إلخ . حين أراد الله أن يجعلها سبب هناءة و سعادة و ارتياح كانت بردا و سلاما على الخليل إبراهيم عليه و على نبينا السلام .

فالخالقُ من عَدَمٍ قادرٌ على الإعادة ، قادرٌ على الْمَنْح و الْمَنْع ،قادرٌ على الإحياء و الإماتة ، قال تعالى : "وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ *وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ *وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا *وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ"(٣) .

اللهُ بديعُ السماوات و الأرض قادرٌ على أيِّ شيء و على كل شيء ، قادرٌ على الشيء و على نقيضه ، قادرٌ على الشيء و قادر على ضدِّه و هذا من تمام قدرته و من كمال إعجازه ؛ لأنه الذي أوْجَدَ الأشياءَ و جعلَ فيها ما فيها من خصائصَ و ما يخدمُها من عوامل محيطة بها . هو المانح للأشياء و هو المانع عنها ، و هو محدد مقاديرها و أقدارها ، يضع كل شيء بحكمة و تقدير لهذا فهو يعطي لكل شيء ما يناسبه في وقته و زمانه ، فإذا تغير الزمان و المكان تغيرت العطاءات ، و إذا غير الإنسان من نفسه تغيَّر عطاءُ الله له ؛ إنه هو الحكيم العليم لا يعزُبُ عن قدرته شيء ، و هو الحكيم العليم .

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور (ج ٦/ص: ٩٧-٩٨) ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (ص: ٧٣٨-٧٣٩) .

(٢) سورة الإسراء : ٨٨ .

(٣) سورة النجم : ٤٢-٤٥ .

الضدّ و النقيض

الضِد:

الْمُخالِف. ويقال: هو ضده أي عدوه، وهما يتضادان: يتخاصمان، وفلان لا ضد له أي لا نظير له، أو لا قِرْن له يعارضه في أقواله وأفعاله، فيفسد ما أصلحه و يصلح ما أفسده، أو هو: ما يكون في قُبَال الآخر متنافرا عنه كالحرارة و البرودة.

النقيض:

الْمُخالِف. يقال: هذا نقيض ذاك أي مخالف له و مباين أو رافعه وطارده، و منه نقائض جرير والفرزدق، وتناقض القولان ناقض أحدهما الآخر، وفي كلامه تناقض أي اختلاف واضطراب، والنقض الهدم، و أيضا يعني حلُّ بعد إبرام أو فساد بعد إحكام، قال تعالى: "وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ..."(١).

اتضح لنا جليًّا أن تفسيرَ الضدِّ والنقيض كليهما بالْمُخالِف هو الحق؛ لأن أئمة اللغة يطلقون اسم الضد على ما يطلقون عليه اسم النقيض، فيقولون: الحي نقيض الميت، والحي ضد الميت، والصلاح نقيض الفساد، والصلاح ضد الفساد. والحر ضد العبد كما في الصحاح. والحر خلاف العبد كما في القاموس.

فإن أردنا التدقيق وجدنا أن مَن فرَّق بين (النقيض و الضد) فعلى الوجه التالي:

النقيضان:

هما الأمران اللذان أحدهما وجودي و الآخر عدمي لا يجتمعان و لا يرتفعان بثالث، مثل: الوجود و عدم الوجود، و القعود و عدم القعود، و الحركة و السكون، و الموت و الحياة.

الضدان:

هما الأمران الوجوديان اللذان لا يجتمعان في محلٍّ واحد من جهة واحدة، ويمكن ارتفاعهما معا عنه. و لا بُدّ في الضدّ من اعتبار محلّ واحد يمتنع اجتماعه مع ضدّه فيه، مثل: البياض و السواد فإنهما لا يجتمعان في شيء واحد في وقت واحد و لكنهما قد يرتفعان بثالث إذ يأتي بدلهما ألوان كثيرة كالصفرة أو الحمرة.

والمعلوم أنها لا تُعرَفُ فضائلُ الأشياء إلا بأضدادها، فالخير يُعرَفُ بالشر والنفع بالضر و القليل بالكثير و الصغير بالكبير و الصلاح بالفساد و الحق بالباطل... إلى غير ذلك مما لا يخفى على الفطِنِ اللبيبِ سنةً لله في خلقه.

---

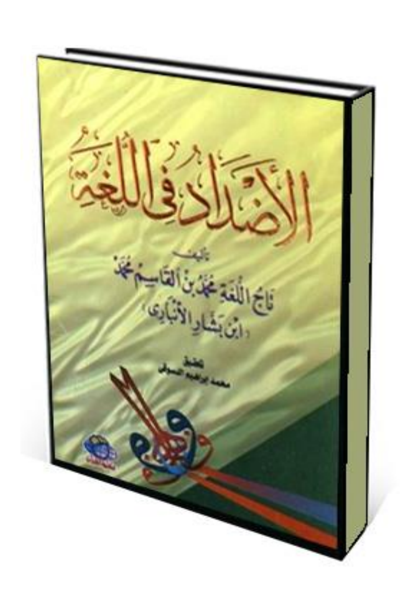
(١) سورة النحل: ٩٢.

ظاهرة الأضداد في اللغة

تميزت اللغة العربية ، وعرفت بظاهرة (الأضداد) في ألفاظها ،حيث لفت أنظار اللغويين العرب و هم يقومون بجمع الثروة اللغوية وجود ألفاظ يدل الواحد منها على المعنى وعلى ضده في آن واحد ، وهي الكلمات التي يدل كل منها على معنيين متباينين أو متناقضين، مثل لفظة (جَوْن) التي تدل على الأسود و على الأبيض، و (الزَّوْج) التي تطلق على الرجل وعلى المرأة ، فيقال : الرجل زوج المرأة، والمرأة زوج الرجل .

والضدُّ كما تحدث عنه بعض اللغويين العرب لا يعني النقيض أو العكس بصفة مطلقة ، فهناك أصناف عُدَّت من الأضداد مع أنها لا تفيد معنى التناقض إنما يدل كل لفظ منها على معنيين متباينين يربط بينهما رابط معين من قريب أو بعيد ، كما يحصل لكثير من بقية الألفاظ المشتركة المعاني ، مثل كلمة (الظعينة) التي تدل على الهودج وعلى المرأة في الهودج ، وكلمة (الغريم) التي تدل على الدائن وعلى المدين وعلى الخصم أيضا ، وربما تندرج تحت ذلك كل الصيغ الصرفية المماثلة التي تستعمل للفاعل والمفعول ، مثل : سميع وعليم وقدير وكحيل وقتيل ودهين وجريح وطريد .

نماذج للأضداد في العربية :



" السليم "تطلق على : الصحيح ، و الملدوغ

" البَيْن "تطلق على : الفراق ، و الوصال

" الحَزْوَر "تطلق على : اليافع القوي ، و الشيخ الضعيف

" الْمَسْجور "تطلق على : المملوء ، و الفارغ

" الْمَولى "تطلق على : السيد ، والعبد

" الرجاء "تطلق على : الطمع ، و الخوف

" الصريم "تطلق على : الليل ، والنهار

" الصارخ "تطلق على : الْمُغيث ، والْمُستغيث

" السُّدْفَة "تطلق على : الظلمة ، والضوء

" الناهل "تطلق على : العطشان ، و الذي شرب حتى روي

" **دُوْن** "تطلق على: الأكثر، و الأقل

" **جَلَل** "تطلق على: الشيء الكبير العظيم، و الشيء الصغير الحقير

" **تأثَّم** "تطلق على: مَن أتى الإثم، و مَن اجتنب الإثم

" **تَحَنَّث** "تطلق على: مَن أتى الحنث، و مَن ترك الحنث

" **ضاعَ** "تطلق على: مَن اختفى، و مَن ظهرَ (١)

---

(١) ضاع: في الأصل جاءت من أصلين هما: ضَيَعَ: اختفى، و ضَوَعَ: ظهرَ، و كلاهما انقلبت فيه الياء و الواو ألفا فأصبح: ضاعَ، فحدث اتفاق الصيغة على الرغم من اختلاف الأصل و المعنى.

النقائض في الشعر

النقيضة مصطلح مأخوذ في الأصل من نقَضَ البناء إذا هَدَمَه ، قال تعالى: " وَ لاتَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ. . . "(١)، والمناقضة في القول أن يتكلم بما يتناقض معناه، وفي الشعر أن ينقض شاعر ما قاله شاعر آخر ، حيث يأتي بغير ما قال خصمُه , و النقيضة هي الاسم للمفرد و يُجمع على نقائض .

نشأت النقائض مع نشأة الشعر وتطورت معه وإن لم تُسمَّ به مصطلحًا ؛ فقد كانت تسمى حينًا بالمُنافَرَة وأخرى بالمُلاحَاة ، وما إلى ذلك من أشكال النِّفَار ، وهي عبارة عن معارك شعرية دارت رحاها بين شاعرين أو عدد من الشعراء ؛ إذ كان الشاعر يكتب قصيدة في هجاء خصمه ، فيرد الخصم (ناقضا) هذه القصيدة بقصيدة أخرى لها نفس الوزن والقافية ، و قد تركزت النقائض في العصر الأموي على غرض الهجاء تحديدا حيث كان الشاعرُ لا يصبِرُ على هجاء خصمه فيجيبه بقصيدة أخرى أكثر إقذاعا وفُحْشًا.

لقد كان شعراء القبائل المتحاربة يتراشقون بالشعر كما يتراشقون بالسِّهام ، فينتصر الشاعر بقومه ، ويردُّ عليه شاعر القبيلة المعادية ، ثم جاء الإسلام فدارت النقائض بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين فدافع شعراء المدينة عن الإسلام والمسلمين ، ودافع شعراء مكة عن دينهم الوثني ، وعلى الرغم من أن النقائض أيام الرسول صلى الله عليه وسلم تُعَدُّ امتدادًا للنقائض في الجاهلية إلا أن تغيرا قد أصابها من حيث الغاية ؛ إذ أصبحت دفاعا عن عقيدة و مبادئ دينية بعد أن كانت دفاعا عن أعراض القبيلة أو لغرض شخصي ، ونقائض الإسلام لم تشتمل على فحش و جرح للأعراض و انتهاك للحرمات كالتي نلحظها بشكل واضح في نقائض جرير و الفرزدق و الأخطل في العصر الأموي ، من مثل قول الأخطل لجرير :

أما كليب بن يربوع فليس لهم ... عند التفارط إيراد و لا صدر

مخافون و يقضي الناس أمرهم ... وهم بغيبٍ وفي عمياء ما شعروا

ملطمون بأعقار الحياض فما ... ينفكّ في دارميّ فيهم أثر

قوم أنابت إليهم كلّ مُخزيَةٍ ... وكلّ فاحشةٍ سُبَّتْ بها مضر

فينقض عليه جرير قائلا:

نحن اجتبينا حياض المجد مترعة ... من حومة لم يخالط صفوَهَا كدر

خابت بنو تغلب إذ حل فارطهم ... حوض المكارم إنّ المجد مبتدر

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا ... والسائلون بظهر الغيب ما الخبر؟

و من طريف ما ذكره ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) بالجزء التاسع:

---

(١)سورة النحل: ٩٢.

" ...وقال هشام بن مُحَمَّد الكلبي عن أبيه قال: دخل رجل من بني عُذْرَة على عبد الملك بن مروان يمتدحه بقصيدة ، وعنده الشعراء الثلاثة جرير والفرزدق والأخطل ، فلم يعرفهم الأعرابي ، فقال عبد الملك للأعرابي: هل تعرف أهجى بيت قالته العرب في الإسلام؟ قال: نعم، قول جرير :

فغُضَّ الطرفَ إنك من نُمَيْر فلا كـعبا بلغــتَ و لا كـلابا

فقال: أحسنت . فهل تعرف أمدح بيت قيل في الإسلام؟

قال نعم، قول جرير :

ألستم خيرَ من ركبَ الْمَطايا و أندى العالَمينَ بطونَ راح؟

فقال: أحسنت . فهل تعرف أرقَّ بيت قيل في الإسلام؟

قال: نعم، قول جرير :

إن العيـــونَ التي في طرفها حَوَرُ قــتلْنَنَا ثم لم يـحيـينَ قـتـلانا
يصـرعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حراكَ به و هــنَّ أضعفُ خـلقِ الله أركانا

فقال: أحسنت . فهل تعرف جريرا؟

قال: لا و الله، وإني إلى رؤيته لَمُشتاقٌ.

قال: فهذا جرير ، وهذا الفرزدق، و هذا الأخطل.

فأنشأ الأعرابي يقول:

فـحـيَّا الإلـهُ أبا حـــزرة و أرغـمَ أنـفـكَ يا أخـطـــلُ
و جَدُّ الفـرزدق أتعِسْ به ! و رقَّ خـيـاشيـمَــه الجنـــدل

فأنشأ الفرزدق يقول:

يا أرغــــم الله أنفًا أنتَ حاملُـــهُ يا ذا الْخَــنَا و مَقالِ الزور و الخَـطَل
ما أنتَ بالحكم الـتُرْضَى حكومَتُهُ و لا الأصـيـلِ ولا ذي الرأي والجدل

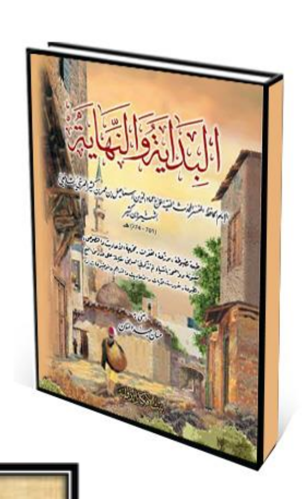
ثم أنشأ الأخطل يقول:

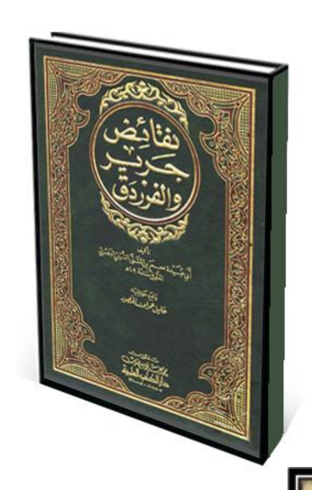
يا شرَّ مَن حملتْ ساقٌ على قــــدم مامــثلُ قولك في الأقوام يُحـــتمَل
إن الحكومة ليســت في أبيــك و لا في معـشر أنت منهم. إنهم سَــفِل

فقام جرير مُغضَبًا، و قال:

أتشتمان سفاها خيركم حـسبا؟ *** ففيكما —و إلهي – الزور و الخطل
شتمتــاه على رفعي ووضعكما *** لا زلتــما في سِفَال أيـــها السَّــفِل

ثم وثب جرير فقبَّل رأسَ الأعرابي ، وقال : يا أمير المؤمنين جائزتي له ، و كانت خمسة آلاف ، فقال عبد الملك : و له مثلها من مالي ، فقبض الأعرابي ذلك كله و خرج . "





الفرزدق يهجو

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعزّ وأطولِ
بيتاً زرارة محتبٍ بفنائه ... ومجاشعٌ وأبو الفوارس نهشلِ
لا يحتبى بفناء بيتك مثلهم ... أبداً إذا عد الفعال الأفضلِ

جرير يرد

أخزى الذي سمك السماء مجاشعاً ... وبنى بناءك في الحضيضِ الأسفلِ
بيت يحمم قينكم بفنائه ... دنساً مقاعده خبيث المدخلِ
قتل الزبير وأنت عاقد حبوةٍ ... تباً لحبوتك التي لم تحللِ

التضاد من مظاهر الجمال في الخط العربي

ليس كلُّ التضادِّ مذمومًا ، و لا كلُّ التناقضِ يكون مصدرَ تشويهٍ لصاحبه ، بل إنه قد يكون محمودًا منه و مُظهِرًا لجماله ؛ فإن الانعكاس أو المقابلة الكتابية ، أو أسلوب الكتابة كالمرآة مشهور بين أصحاب فن الخط العربي ، و لهم فيه إبداعات تتوارثها الأجيال من الخطاطين ، و يتبارون في إظهار قدراتهم الجمالية من خلالها ، و لا يخفى جمال هذا الأسلوب من الكتابة على كل متذوق لهذا الفن ، حين تشعر أن الكتابة تقف أمام مرآة فترى هذه بمقابلتها لتلك ، و هما تتعانقان في لوحة جمالية رائعة تظل مشدودا لها فترة تتعمق فيها مسرورا ، و تبحر خلال أمواج خطوطها مبهورا .

الخطاط و الباحث في مجال الخطوط العربية (ثائر الأطرقجي) كتب على مدونته الخطية بالشبكة العنكبوتية عن **ظاهرة التقابل الشكلي أو التضاد في الخطوط العربية** فقال :

" التَّضَادُّ كَمَفْهُوم يُعَبِّرُ عَنْ التَّنَاقُضِ أَو التَّعَاكُسِ أَو التَّقَابُلِ , وَهُوَ مَعْنًى شَائِعٌ فِي الْكَوْنِ وَالْحَيَاة وَالْمَفَاهِيم , وَبِقَدْرِ مَا يُعَدُّ التَّضَادُّ وَسَيْلَةً مِثَالِيَّة لِخَلْقِ الْفَوضَى ولكِن يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ أَكْثَرَ أَنوَاعِ التَّنظِيم الشَّكْلِي شُيُوعا ، وبِقَدْرِ مَا يُعَبِّرُ عَنِ الصِّرَاعِ فَإِنَّهُ من الْمُمكِنِ أَنْ يُعبِّرَ عَنْ التَّكَامُلِ ؛ فَالضِّدُّ يَسْتَدْعِي ضِدَّهُ فَتَتَحَقَّقُ وحْدَةُ الْقُوَى الْمُتَصَارِعَةِ وَتَكْشِفُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ حِدَّةَ كُل طَرَفٍ مَعَ نَقِيضِهِ , وَقَدْ اعْتَمَدَ التَّضَادُّ أو التَّعَاكُس فِي التَّكْوِيْنَاتِ الْخَطِّيَّةِ المِرآتِيّة ، ولكِنَّ الْمُتَأَمِّلَ يُمْكِنُ أَنْ يَجِدَ كَثِيْرا من تِلْكَ التَّكوينَاتِ التي تُسْتَجلَبُ لضرُوْرَاتٍ دِلالِيَّةٍ مُنْبَثِقَة عَنْ مَعْنَى النَّصِّ , لِذَا يُمْكِنُ عَدُّهَا بِمَثَابَةِ إظْهَارٍ لِلْمَهَارَةِ الْخَطِّيَّةِ التِقَنيَة , كَمَا فِيْ الْشَّكْلَيْنِ التاليين :





و لكن يُمْكِنُ أَنْ نَجِدَ فِيْ بَعْضِهَا تَطَابُقًا بَيْنَ مَعْنَى النَّصِّ أو الْعِبَارَة وبِنْيَة التَّصميم الْخَطيَّ الْمُتعاكِس , ففي الشَّكْلِ التالي :



يَدُلُّ مَعْنَى العِبْرَة عَلَى فِكْرَة الْفِعْلِ وردِّ الفِعْلِ : (مَنْ دَقَّ دُقَّ) فَأَصْبَحَ من الْمَنْطِقِيّ تَعبِيْرًا أن يُصَارَ إِلَى إِخْرَاجِ التَّكْوِينِ عَلَى هَيْئَةٍ مُتَعَاكِسَةٍ .

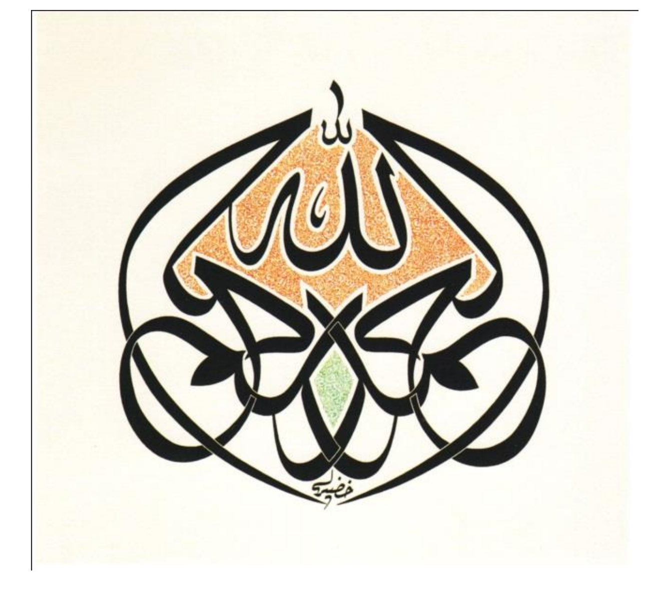


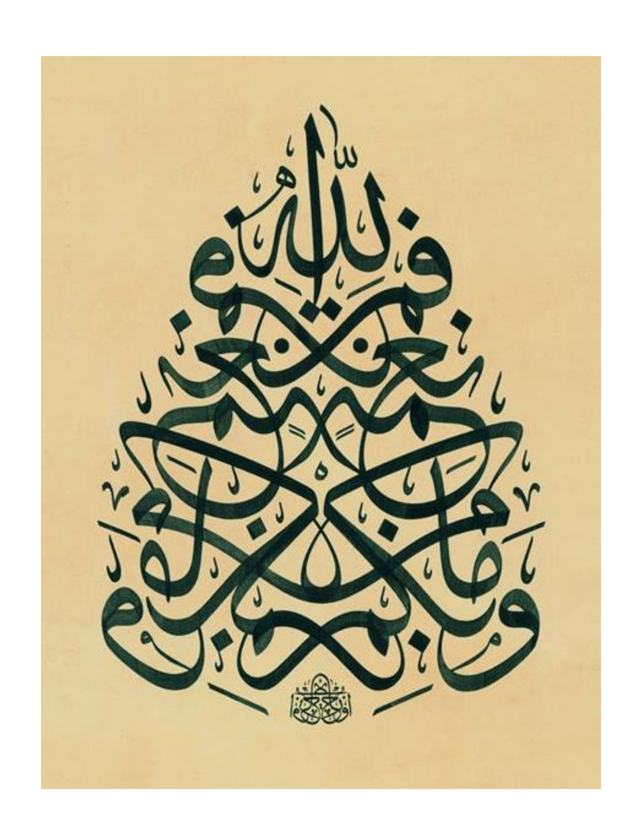
وَكَمَا نَجِدُ فِيْ الشَّكْلِ التالي :

الذي يُجَسِّدُ عِبَارَةَ (الْمُؤْمِنُ أَخُوْ الْمُؤْمِنِ) حَيْثُ يُسْتَدَلُّ مِنْهَا عَلَى مَعَانِي التَّلاحُمِ و التَّوَاشج و التَّلاقِي , فَتَحَقَّقَ ذَلِكَ فَنِيًّا عَبْرَ بِنْيَةِ التَّصمِيم الخَطِيِّ الْمُتَعاكِس, وَكَذَا الحَال فِيْمَا لو أَرَدْنَا خَطَّ عِبَارَةَ (الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ) , فمن الأنسَب دلالِيًّا أنْ تُصَمَّمَ عَلَى هَيْئَةٍ مُتَعَاكِسَةٍ . " ا.هـ.

و أقولُ لكم ليس شرطا أن يكرر الخطاط في الجهة المضادة كلَّ شيء بل أحيانا ينتقي في لوحته أجزاء ليكررها و أجزاء أخرى يضعها بمعزل عن التكرارية المضادة أو المقابِلة ، و ذلك حسب رؤية فنية جمالية يراها الخطاط كما رأينا لوحة المؤمن أخو المؤمن السابقة ، حين عزل جزءا من كلمة (أخو) فكان اتزان اللوحة مع انسيابية الجمال في تدرج مساحتها ارتفاعا .

كما أن عزل بعض الأجزاء يعطي حسا عقائديا أحيانا ؛ أبرهن لك على مقولتي هذه بالتحفتين التاليتين حين تم عزل لفظ الجلالة فلم يكرر بالجهة المضادة فتستشعر بوحدته دلالة التوحيد العقدي مع جمال الخط و التركيب عند رؤيتك لهاتين اللوحتين.





الأمَّة بين التقدُّم و التأخُّر

قاد الإسلامُ أتباعَه إلى التقدم و الرقيّ و ذلك حيث كان أغلبهم أتباعا صادقين و متبعين منفذين لأخلاق و معاملات دينهم ، و خير دليل على هذا ما كان من مكانة عظيمة للمسلمين الأوائل على خريطة الأمم علما و خلقا و تعليما و ثقافة فكانت حضارتهم ملء العين و السمع مهوى العقول المفكرة و الأفئدة المتدبرة ، لكن حالهم صار على النقيض ، فمع مرور الوقت تغيرت معاملاتهم و أخلاقهم ، و تنكبوا الطريق فبعدت بهم الشطوط ؛ لذا صار موقع المسلمين على الساحة الأممية في دائرة التأخر و التخلف ، و لن تعود للمسلمين مكانتهم الحقيقية التي يستحقونها – بحكم نسبتهم لأفضل رسالة و أعظم رسول و أرقى معاملة – إلا حينما يعودون للصراط المستقيم الذي رسمه لهم دين الإسلام ، فطَوْق النجاة موجود لدينا : "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَ لا تَفَرَّقُوا . . ."(١)

و فيما يتعلق بهذه التناقضية التي عاشها المسلمون عبر القرون ، سأقص عليكم موقفا حدث لي ذات يوم حين كنت أتصفح بريدي الإلكتروني ، إذ رأيت تنبيها لرسالة خاصة في صفحتي على موقع التواصل الاجتماعي المسمى (فيسبوك) ، لا أعرف لماذا أرسلها لي صاحبها الذي سمى نفسه (تاتو تيتو) لعله قرأ لي تعليقا أو مقالا في موقع ما ، أو رأى لي رأيا في صفحةٍ ما على الشبكة العنكبوتية !

الرسالة تقول : اللغة العربية والإسلام و مُحَمَّد والقرآن أصل التخلف ، و برغم قلة كلماتها إلا أنني شعرت بفوران و غضب كالذي يشعر به القارئ الغيور على دينه و لغته إن لم يكن أشد ، و كدت أتلفظ بما لا يليق في حق هذا الشخص و ذهبتْ رأسي في مذاهب شتى ، غير أنني بعد قليل عدت أنظر للرسالة و أفكر .

قلت : عساه لا يدري عن المعلومات التي اكتشفها العلم الحديث بما يوافق ما ورد في القرآن الكريم و السنة النبوية المطهرة ، فأجريت بحثا على الشبكة العنكبوتية عن الإعجاز العلمي في القرآن و السنة و ألفيت الكثير من الصفحات و المنتديات و المواقع بين متحدث بصورة عامة و بين مفهرس للموضوعات و بين منظم للجهات على اختلاف العلماء و المجتهدين ، فأخذت أنسخ بعض الروابط المنتقاة بما يوصِّل الضاغط على هذه الروابط إلى هذه الصفحات الرائعة ليغوص هو كما يشاء و ينتقي ما يريد . فما يهتم به شخص قد لا يهم شخصا آخر ، و دار في خَلَدِي أن أرسلها لصاحب الرسالة برسالة ، غير أنني بعد أن نظمتها عدَلْتُ عن الرأي ، و عدت لأطالع الرسالة ، و جلست أفكر .

قلت لنفسي : الكلام الذي أرسله هذا الشخص خطير لا ينفعه صفحات إعجاز القرآن و السنة ، لأن كلامه يدل على عدم اعترافه بالنص القرآني و لا بالسنة النبوية و لا بفضل اللغة ، و بعد تفكير هداني الله لأن أكتب إليه موضحا بالمعقول مبتعدا عن المنقول كي يسمع مني هذا الْمُنكِر ، و لا تدري لعل الله يهدي بكلمةٍ مَن لا يؤبَهُ له مَن كان في الطغيان متماديا ، فسحبتُ صفحة من برنامج الكتابة على الحاسب و جلستُ أسطِّرُ ما فتح الله به عليَّ وقتها ، ثم عدت لأكمل رسالتي في اليوم التالي و أنقِّح بعضَ كلماتها ، و هاكم نص الرسالة :

"رأيت رسالة – لا أعرف لماذا أرسلتها لي – تقول فيها : اللغة العربية والإسلام و مُحَمَّد والقرآن أصل التخلف .

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ .

لقد ساءَنِي جدًّا ما قلتَهُ . . . و لا يمنعني غضبتي لله من أنْ أردَّ – قدر جهدي – بأدب لأن الإسلامَ الذي تجهل حقيقته ، و القرآنَ الذي لا تعرف قيمته ، و محمدًا الذي لا تدرك علمه و خلقه أمرَنا بلغة عربية مبينة أننا إنْ جادلنا فبالتي هي أحسن ، ولْتقبلْ كلامي أو لترفضه هذه حريتك ، لكن بحكم ما أعطيته لنفسك من حق في أن تقول ما تشاء و ترسل ما تريد ، فلا أقلَّ من أنْ يكونَ لِي نفسُ الحق ، و للإنصاف(١) هناك أحد احتمالين : إما أنني على صواب و أنت على خطأ ، أو أنك – حسب ظنك – على صواب و أنا على خطأ .

لنتفق مبدئيا على أن المسلمين حاليا بصفة عامة متخلفون عن العالم باختلاف توجهاته و قد تكالبت عليهم الأمم ، و أنا لا أنكر ذلك فهو كالشمس في رابعة النهار ، لكن هل تتفق معي في أن الشخص هو صاحب الدَّوْر الرئيس في رقي أمَّتِه أو انحطاط أمَّتِه ؟

على سبيل المثال : دينُ الإسلام و القرآنُ الذي نزل على محمدٍ الرسولِ(٢) و اللغةُ العربية كلُّ هذا كان موجودا(٣) منذ قرون مع السابقين الأولين الذين صنعوا – هم و مَن تلاهم – الحضارةَ زاهرة ليس لها كفْء و بلاد الإسلام كانت في رغد و عزة ، و ما يزال دينُ الإسلام و القرآنُ الذي نزل على محمدٍ الرسولِ و اللغةُ العربية موجودين حتى الآن ، لكننا نحن المسلمين في حالة تخلف و مذلة ، فما الذي تغير في الحالين ؟!

تغيرت الشخوص و التصرفات و طريقة التفاعل(٤) ، و بالتالي تغيرت المكانة و الشعور و نظرة الآخر(٥) ، أما الدين و الكلام الْمُنزَل و الرسول و اللغة فثوابت لم تتغير في هذه المعادلة برغم بعض التطورات اللغوية و اجتهادات العلماء في أحكام الدين ، لكنني أقصد أن الأصول هي هي لم تزل موجودة ، و سنة الله في الكون التغيُّر فدوام الحال مُحال ، و قد تنقلب الأمور عن قريب فيصير العزيز ذليلا و يقوم مَن كان ذليلا في عِزَّة الطَّوْد شامخًا .

أنا لا أعرف اسمك(٦) و لا مِلَّتَكَ و لا من أي البلاد أنت ؟ قد تكون مسلما أو على دين آخر و قد تكون من بني جلدتي ليست هذه مشكلة لكن المشكلة الحقيقية هي إلقاء الشخص أيا كان أحكاما دون معرفة بجوانب القضية ، أو أن يظن الشخص نفسه على صواب دائم رغم قصور عقله و جهله بكثير من الأمور ، أو مجادلة الشخص لمجرد الانتصار للنفس لا بحثا عن الحق .

لنتجردْ من الأهواء و لنتعاملْ بمنطق سليم مع الأمور ، و إليك هاتين النقطتين :

---

(١) آثرت الوقوف معه على أرضية واحدة في افتراض الصواب و الخطأ ، و هذا ما يوافق العدل في الإسلام و المنطق السليم فأنا لست حَكَما و لكنني طرف آخر في النقاش بغض النظر عن ماهية القضية المطروحة .

(٢) حين نذكر الرسول صلى الله عليه و سلم لابد من أن نصلي و نسلم عليه قولا و كتابة ، غير أني في رسالتي إليه لم أكتب بعد ذكري للرسول نص الصلاة و السلام عليه لأنني أخاطب مَن لا يؤمن و لا يقدِّر فأثبتُّ له الرسالة دون ذكر نص الصلاة و التسليم تحرزا ، و لا أدري أخطأت أم أصبت في هذا ؟ عفا الله عنا و عنكم ، فكلما ذكِر الرسول صلوا عليه و سلموا تسليما .

(٣) وجود الرسول صلى الله عليه و سلم بعد وفاته من خلال ما تركه من سنة (أقوال و أفعال و تقريرات) ، و معايشتنا لسنته وجود له في حياتنا .

(٤) هذه هي الأسباب في نظري .

(٥) هذه هي النتائج في نظري .

(٦) صفحته على موقع التواصل ليس بها ما يدل على معلومة عن هذا الشخص .

النقطة الأولى : ليست اللغة هي التي تصنع الحضارة أو التخلف بل مستعمل اللغة (الإنسان) هو صانع الحضارة أو التخلف لأن اللغة ببساطة وسيلة تفاهم و تواصل مع الآخر أو وسيلة تعبير عن مشاعرك للآخر (سأثبت لك عمليا بعد قليل صحة كلامي) .

النقطة الثانية : الدين من خلال النبي و الكلام المنزل عليه يبني أسس علاقة الإنسان بربه و بنفسه و بالآخر ، و يعلمه بعض ما لا يعلمه عما حوله و ما غاب عنه .

الإنسان في الأولى و الثانية هو العنصر المحوريّ الفاعل تلقيًا و استجابة أو تأثرا و تأثيرا .

الإنسان يقرأ و يبحث و يفكر من خلال استعماله وسيلة التواصل (اللغة) : هل هذا الأمر صحيح أم غير صحيح(١)؟ هل هذا الرسول صادق أم غير صادق ؟ يجري اختباراتٍ عن طريق السؤال و الإجابة ليصلَ إلى قناعة بهذا الدين أو ذلك الدين و قد يعقد مقارنات كي يصل إلى قناعته تلك ، و هذه هي لبنات بناء ما يكنُّه الإنسان من معتقد ، و الإنسان إما مُتقبِّل منفِّذ لتعاليم الدين أو رافض مبتعد عن تعاليم الدين ، فإذا قبل و نفذ فهناك سؤال مهم : هل يلتزم الإنسان بالفهم الصحيح للدين قولا و فعلا أم أنه بعيد عن الفهم الصحيح للدين قولا و فعلا ؟

أنا لن أجيبَكَ عن الأسئلة التي طرحتُها فأنت الجدير بالإجابة عنها ، أنا – فقط – أصوغ الأسئلة مصابيح تضيء الطريق لبيان سبب التخلف و عليك أن تمشي في النور لأنه لا يسيرُ بكَ سوى قدمَيْكَ أنتَ ، أنا أبحث معك من خلال رؤية صحيحة و معيار واضح يمشي على نوره أي إنسان حتى يصل لبر الأمان في حكمه على الأمر .

أيها الإنسان لقد وجدتَ نفسك تتفاعل مع ما حولك في كون مليء بالإعجاز ، و وجدتَ لك عقلا تبحرُ به فيما حولك من أعاجيب ، و وجدتَ لك يدا تكتب بها و كان مما كتبتَ أن ادعَيْتَ أنَّ القرآنَ و الإسلام و الرسول مُحَمَّد و اللغة العربية أصلُ التخلف ، و وجدتَ لك عينا تبصر بها و كان مما أبصرتَهُ رسالتي هذه إليك ، و مما يقبله العقلُ أنَّ لهذه المزايا كلها و غيرها مُوجِدًا أوْجَدَها و خالقا خلقها ؛ فلكل فِعلٍ فاعِلٌ، ولكل حادِثَةٍ مُحْدِثٌ .

إنَّ الذي وَهَبَك وَهَبَني ، و وَهَبَ الآخرين مثل مواهبك أو أكثر ، فأنا و أنت و هذا الكون الفسيح لخالق واحد لا يجرؤ أحدٌ أنْ يدَّعي مشاركتَهُ في الخلْق ، هو الذي صاغ فأتقن بحكمة و اقتدار و رزق و أعان في الليل و النهار ، و هو القادر وحده أن يَهدي نفسي و نفسك لمعرفة وجه الحق في أي مظهر من جوانب الحياة أو ما وراء الحياة ، كما أنه قادر أن يُخفيَ عنا أشياء كثيرة ، فانظر حولك و فكر تجد الأعاجيب في الكون لكن على صورتين : أعاجيب تبهر العقل من خلق الخالق سبحانه لا تجد فيها عِوَجا يعيق اتزانها ، و لا أمْتًا(٢) يُخِلُّ بتوازنها ، و انظر في أفعالنا نحن البشر تجد أعاجيب لكن على نحو آخر يظهر لك الحسن و القبح فيه من خلال أثر أفعالنا و نتائجها ، فإما أن تكتب بسيرة حياتك ما يُستحسَن ذكرُك بسببه و تحسُن نهايتك به ، أو تكتب بسيرة حياتك ما يُساء ذكرُك بسببه و تسوء نهايتك به ، فابحث عن الحق و راجع نفسَكَ ؛ لأن الاعتراف بالحق فضيلة تنقُص الكثيرين و تُجمِّل أصحابَهَا في عيون الآخرين .

---

(١) السؤال ينطبق على أي شيء : سواء كان اعتناق دين ما ، أو ارتداء ملبس ما ، أو تصرف ما ، أو ردفعل ما ... إلخ .

(٢) أي : ارتفاعا .

لعلك لاحظتَ أني خاطبتك بعقلانية محضة(١) ، و منطقية بحتة(٢). لم أذكر لك آية من القرآن أو حديثا للرسول مُحَمَّد اللذَيْنِ هما الإسلام.

لم أتحدث عن مزايا الإسلام، و لا عن فضائل القرآن، و لا عن سيرة مُحَمَّد الرسول، و لا عن الإعجاز العلمي للقرآن و الحديث النبوي، و لا عن جماليات اللغة العربية و تفوُّقِها على ما عداها(٣)، رغم أن لكل من هذه العناصر ما يصعب حصره من الجوانب و الدلائل المبهرة الدالة على أنها تحوي أهم أسس الرقيّ و التحضر إنْ أحسنَّا فهمها و العمل بها .

لم أتكلم عن أي من ذلك لا لشيء إلا لأن كلامك يدل على رفضك و إنكارك للإسلام و للقرآن و لمحمد الرسول و للغة العربية – و هذا شأنك و لكلٍّ مِنَّا قناعاته و اعتقاده – فخاطبتُ عقلك الذي نتفق أنا و أنت على وجوده حاليا ، و رغم عدم ذكري في رسالتي هذه لشيء من جوانب العلم و الإعجاز في القرآن و حياة مُحَمَّد الرسول لأتوجه بكلامي لعقلك إلا أنني لم أستطع البعد عن اللغة العربية ؛ لأنها كما قلت لك هي الوسيلة للتواصل و التعبير ، فأنا قد قمتُ باقتحامها و قطفتُ منها كلمات تراها نديَّة مزهوَّة أمامك لأصوغَ بها جَنَى(٤) رسالتي إليك و يفوحَ من ريحانها العبيرُ(٥) لديك ، فهل اللغة العربية هي التي كتبتْ لك الرسالةَ أم أنا ؟ هَبْ(٦) أنني اخترتُ من كلمات السبِّ و اللعن والشتم و قبيح الألفاظ ما اشتعل نارُه ، و ظهر أوارُه(٧) في طيات(٨) رسالتي إليك ، و ألهبتُ به حماسة الرد عليَّ بمثلها لديك ، هل ستصفني بقلة الأدب أم ستصف اللغة العربية بقلة الأدب ؟ هذا هو الدليل الذي وعدتُك به آنِفًا(٩) على صحة قولي بأن ناطق اللغة (الإنسان) هو الصانع للحضارة أو التخلف ، و كذلك صاحب الدين (الإنسان) هو الصانع للحضارة أو التخلف بناء على أفعاله و أقواله التي يبني بها حضارة ، أو يهدم بها حضارة .

الحقيقة التي أعتقدُها هي أنَّ دينَ الإسلام و القرآنَ الذي نزل على الرسول مُحَمَّد و اللغةَ العربيةَ أصولٌ كما ذكرتَ أنتَ ، لكنها عندي أصول للنجاة من سوء المصير ، و أصول لحسن المآل ، و أصول للرقي و العلم إذا أحسن الإنسان فهمها ، و الأخذ منها و العمل بمقتضياتها ، لكن إذا ما أساء الإنسانُ فهمَها ، و الأخذَ منها ، و العملَ بمقتضياتها فصار كالأنعام بل هو أضلُّ، فلا تلومَنَّ إلا الشخصَ؛ إذ من الظلم أن نلومَ اللغةَ أو الدين أو الرسول أو الكتاب الْمُنزَل لِعَتَهِ و سَفَهِ مَن انتسب له اسما ، و لم ينتفع منه شيئا .

إن الصورة الحسنة أو السيئة التي ترتسم لشخصٍ ما في ذهنِكَ ما هي إلا شخصيته هو بقدر ما حصَّل من أصول التكوين في مجتمعه تربية و دينا و عادات و بحسب طريقة تفاعله معك ، و قد يَخرُجُ من صُلْبِ العالم الْمُعظَّم جاهل مُحتقَر ، و يخرج في ساق الزهرة شوك .

---

(١) أي: خالصة.

(٢) أي: نقية.

(٣) أي: على غيرها من اللغات.

(٤) الجنى: ما تم اقتطافه من الثمار الناضجة.

(٥) أي: الرائحة العطرة.

(٦) أي: افترض.

(٧) الشرر و اللهب.

(٨) أي: بين كلمات و سطور رسالتي.

(٩) أي: من قَبل.

الجهلُ و التخلف و التقصير منا نحن شخوص المسلمين لأن أفعالنا و أقوالنا بعدتْ عن الحق الذي آمنا به ، و أصبحت صورةُ الحق الذي بين أيدينا غيرَ واضحةٍ في أعين الآخرين لأنهم يظنوننا تمثيلا عمليا لديننا ، غير أن الكثير منا مَسْخ(١)مشوَّه تنازعته أيدي الأهواء فمزَّقته كل مُمزَّق و خلعتْ عنه لباسَهُ(٢)و شرَّدته(٣)عن وطنه(٤)إلا ما رحم ربي ؛ لذا أقول لك : تعرَّفْ على الإسلام و القرآنِ و محمدٍ الرسولِ و اللغةِ العربيةِ من خلال ما كتبه العلماءُ المحققون عنهم ، و لا تتعرَّفْ على الإسلام و القرآنِ و محمدٍ الرسولِ و اللغةِ العربيةِ من خلال المسلمين أو العرب ، ثم بعد ذلك تكلمْ يُسمَعْ منك الدُّرَرُ ، و يبعُد عن منطقِكَ الزَّلَلُ(٥).

والذي نفسي بيده لو أدركتَ نتائج مقولتك حين تقف بين يدي الله ما قلتَها ، و لندمتَ على تفوُّهِكَ بها كلَّ الندم ، و لطلبتَ المغفرةَ و العفو من الله عن هذه الزَّلَّة(٦)العظيمة ، و لئن بحثتَ و قرأتَ و سألتَ لعرفتَ أنني صدَقتُكَ القولَ و النصحَ مخلصا ، و أهديتك من الدُّرِّ و الخيرِ خالصا .

سامح إطالتي في الكلام فأنا لا أريد إلا أنْ يستنيرَ دَرْبُك(٧) بُغيةَ الهدايةِ و رجاءَ نُصْرةِ الحق ، فإن كان مقصدي تمَّ فلله الفضلُ ، و إن لم يكن فالحمد لله في الأولى و الآخرة له الأمرُ و إليه المصيرُ ، يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون . "اهـ.

أرسلت رسالتي هذه إلى صفحته ، ثم نشرتها على صفحتي و أرسلتها لبعض الصفحات التي تهتم بقضايا الإسلام و اللغة العربية حتى ينتفع بها أي قارئ و نشَرَها بعضهم مشكورين ، نسأل الله أن تنفع و تشفع يوم لا ينفع مال و لا بنون .

---

(١)أي : صاحب صورة سيئة.

(٢)أي : ثوبه الذي كان يرتديه ، و المقصود هنا ليس الثوب الحقيقي بل ما يظهر من الخلق و المعاملة الحسنة المستقاة من الدين.

(٣)أي : أبعدته.

(٤)القصد من الوطن هنا : ما تستوطنه من مكانة ، فهناك مَن يستوطن دار الشقاء لأنه من أهل النار نتيجة ما اعتقده و قاله و فعله في حياته الدنيا ، و كان الأولى به أن يحسن الاعتقاد و القول و العمل كي يستوطن دار السعادة حين يكون من أهل الجنة ، فلقد أعدَّ الله للجميع أماكن في الجنة و أعد للجميع أماكن في النار ، فانظر أيَّ الموطنَيْن تستوجب لنفسك عند الله ؟ فكلاهما جاهز ينتظرك.

(٥)أي : الخطأ.

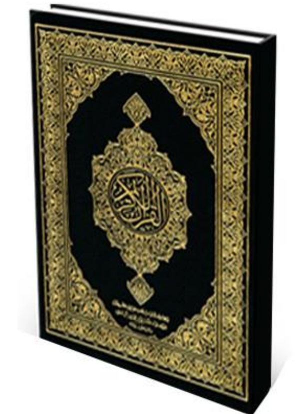
(٦)واحدة الزلات و هي واحدة الخطأ.

(٧)أي : طريقك.

*******- إعجاز في القرآن و السنة

من إعجاز القرآن الكريم ، و السنة المطهرة

القرآن الكريم هو الوحي المنزَل على عبد الله و رسوله (مُحَمَّد بن عبد الله) معجزة خالدة ، و وجوه الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة و متعددة : إعجاز لغوي ، إعجاز غيبي ، إعجاز علمي . . . إلخ ، مما يُجَلِّيه الله على أيدي العلماء و يتضح يوما بعد يوم من أوجه لم تكن واضحة للخلق قبل ذلك ، ففيه تناسب في جميع ما تضمنه لا يتطرقه باطل و لا يعترضه تناقض ، ناهيك عن قوة تأثيره في سامعيه سواء أكانوا مؤمنين به أو غير مؤمنين به ؛ لأنه مصدر الهداية من الله الخالق جل في علاه .



و لعلنا نلاحظ كل فترة كشفا جديدا في إعجاز القرآن الكريم و السنة النبوية المطهرة التي لم يأت بها النبي إلا بناء على وحي و بينة من ربه ، حيث يطل علينا العلم الحديث باكتشافات علمية لم نسمع بها من قبل قد أتت بعد بحوث و استقراءات و تجارب مضنية قد يُهلِك العالِمُ فيها عمرَهُ كلَّهُ ليكتشف نظرية علمية واحدة ، و ترى العلماء المدققين حينما يرسلون تفكيرهم على بينة من ربهم يتبين لهم أن القرآن الكريم قد تكلم عن هذا الأمر منذ أكثر من أربعة عشر قرنا على لسان النبي الخاتم صلى الله عليه و سلم ، أو أنها وردت في أفعال النبي الكريم .

لقد حثَّ القرآنُ الكريم الناسَ على النظر في ملكوت السماوات و الأرض و في النفس ليلفت نظرهم إلى مظاهر الإعجاز و العظمة التي ترشدهم إلى الخالق و تدلهم على وجوب عبادته و طاعته ، و لعل هذه الكشوف العلمية التي تطالعنا كل فترة مما يظهره الله إلى حيز الوجود على يد أحد من خلقه تنظيرا أو كشفا بما يتناسب مع عقول خلقه و معارفهم في كل زمان و مكان ، فهذا الكتاب لا تنقضي عجائبه و لا تنتهي جمالياته ، عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن هذا القرآن مأدُبَة الله تعالى فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله عز وجل، وهو النور المبين والشفاء النافع، عِصْمَة لِمَن تمسك به ونجاة لِمَن تبعه، لا يعوَجُّ فيقوَّم و لا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَق عن كثرة الرَّدِّ، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول لكم : الم حرف، ولكن ألف ، ولام ، وميم "(١) .

البعض شكَّكَ في كون هذا القرآن وحي من الله ، و ادَّعى البعض أن مُحَمَّدا اختلقه من عند نفسه ، أو تعلم ما ورد فيه من أحد الأعاجم ، و لو كان الأمر من صنع البشر لكان من المفترض أن يتكلم بنفس أساليب و نظريات وقته و على قدر قدراته أو قدرات مَن أخذ عنهم كما ادَّعى المدَّعون، إلا أن القرآن لم يَخُضْ في الخرافات التي تنتشر في عصره ، كما أنه قد هدم الكثير من النظريات ، و أوجد الكثير من المعلومات سواء الغيبية أو العلمية التي لم تكن معلومة وقت ظهوره – ناهيك عن الأخلاق و المعاملات و الأحكام – بل إنه أتى بأشياء تخالف ما كان سائدا وقتَ نزوله و العصور التي بعد ذلك مخالفا معتقدات كثيرة لدى البشر محاربا للكثير منها داعيا إلى التفكُّر و التدبُّر متحديا معارضته ، و لو اجتمع الخلق كلهم على قلب رجل واحد ، فهل هذا من قدرات البشر ؟!

لم يأت القرآن على لسان النبي مُحَمَّد بإصلاح العقيدة الفاسدة و الأخلاق المنحرفة فحَسْب ، بل مع الوقت اكتشف العلماءُ أنه أتى بإصلاح نظريات علمية أيضًا ، فمثلا مما انتشر قديما أن الأرض ثابتة لا تتحرك ، و كان يُعتقَد أن السماءَ سقفُ الأرض ، و أن النجومَ

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم برقم : ٢٠٤٠ .

التي فيها مسامير لامعة من الذهب أو الفضة ، و أنها ملقاة بقبة السماء بسلاسل ذهبية ، لكن القرآن يخبرنا عن الكون بمنظور آخر ، ليس هذا فحَسْب بل تطرق لبدء خلق الكون و تكلم عن كيفية انهياره و نهايته ، تكلم عن بدء تكوين الإنسان ، و تكلم عن كيفية التناسل ، و تكلم عن تطورات الجنين . . . إلخ .

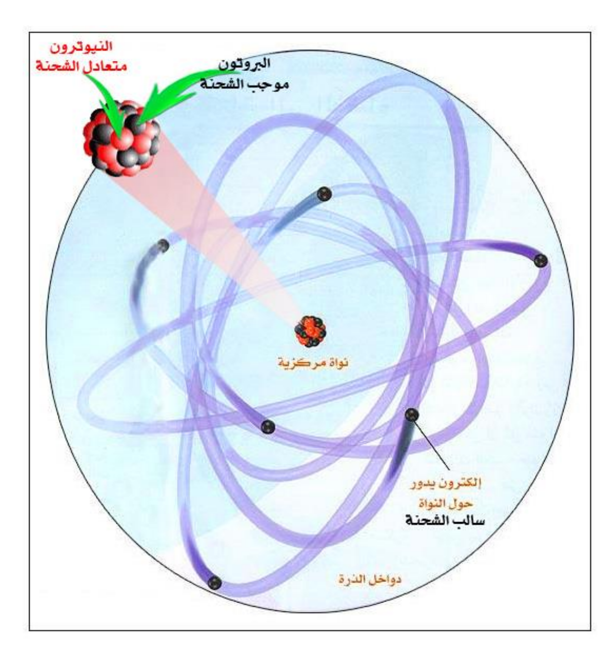
القرآن العظيم تكلم عن أشياء كثيرة لا نستطيع حصرها لكننا سنتطرق إلى بعض الجوانب التي تكلم عنها في السطور التالية من منظور فكرة بحثنا هذا (الجمع بين متضادين أو متناقضين) فهيا بنا إلى مقتطفات من ذلك .

الزوج ، و الزوج الآخر

قال تعالى : "وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"(١) ، و بحكم صيغة التعميم الواردة في الآية الكريمة فإن الزوجية موجودة إذًا في كل شيء يمكن أن يضع عليه الإنسان يده ، و ليست قاصرة على ما يكون من الذكر و الأنثى في النبات أو الحيوان فقط .

و مما قاله العلماء السابقون في الزوجية عند تفسيرهم لهذه الآية " وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " : الكفر و الإيمان ، الشقاوة و السعادة ، الهدى و الضلال ، الليل و النهار ، السماء و الأرض ، الإنس و الجن ، الشمس و القمر ، الذكر و أنثاه .

قال الطبري في تفسيره لهذه الآية : " . . . و أَولى القولين في ذلك قول مجاهد : و هو أن الله تبارك وتعالى ، خلق لكلّ ما خلق من خلقه ثانيا له مخالفا في معناه ، فكلّ واحد منهما زوج للآخر ، و لذلك قيل : خلقنا زوجين . وإنما نبه جلّ ثناؤه بذلك من قوله على قُدرته على خلق ما يشاء خلقه من شيء ، و أنه ليس كالأشياء التي شأنها فعل نوع واحد دون خلافه ، إذ كلّ ما صفته فعل نوع واحد دون ما عداه كالنار التي شأنها التسخين ، ولا تصلح للتبريد ، و كالثلج الذي شأنه التبريد ، ولا يصلح للتسخين ، فلا يجوز أن يوصف بالكمال ، وإنما كمال المدح للقادر على فعل كلّ ما شاء فعله من الأشياء المختلفة والمتفقة .



وقوله (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) يقول : لتذكروا وتعتبروا بذلك ، فتعلموا أيها المشركون بالله أن ربكم الذي يستوجب عليكم العبادة هو الذي يقدر على خلق الشيء وخلافه ، وابتداع زوجين من كلّ شيء لا ما لا يقدر على ذلك . "اهـ .

و رغم إيمانِنَا بما قاله العلماء المفسرون إلا أن العلم الحديث أبان لنا جانبا آخر في مسألة الزوجية لا يخالف ما قالوه بل يضيف إليه بُعْدًا آخر ، نستعرض شيئا من هذا خلال تطوافنا السريع مع الدكتور (مُحَمَّد حسن هيتو) في كتابه (المعجزة القرآنية) على نحو ما سنلخِّص بعضا مما ورد فيه من مكتشفات علمية ، مثل ما يلي :

---

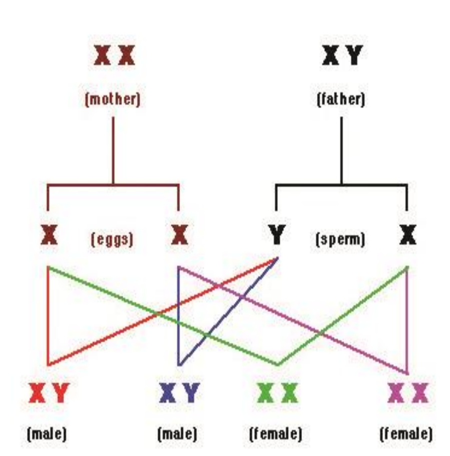
(١) سورة الذاريات : ٤٩ .

١ . الذرة تتكون من زوجين هما : النواة و الإليكترون الذي يدور حولها ، أو الزوجين السالب و الموجب في الذرة .

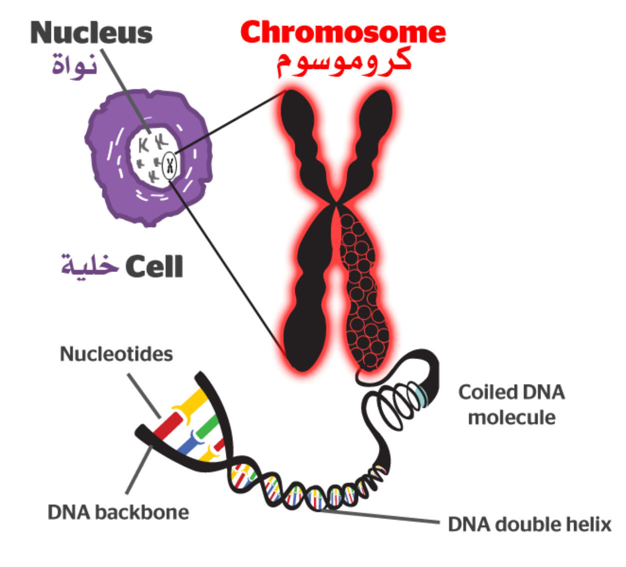
٢ . بداية ظهور الإليكترون تكون في لحظة خاطفة حيث يظهر على اللوح الحساس ولادة جسمين أحدهما يتجه إلى اليمين و الآخر إلى اليسار كأن أحدهما عدوٌّ لقرينه (اكتشف ذلك كارل أندرسون ١٩٢٣ م . في تجاربهلدراسة الأشعة الكونية) . فالكون – حسب فهم العلماء التجريبيين – طاقة اتخذت صورة المادة بجسيماتها و ذراتها و حينما تتجسد تتجسد على شكل زوجين و ليست مفردة ، فسبحان الذي خلق الأزواج كلها !

٣ . على الألواح الحساسة في المفاعلات النووية يسجل العلماء مولد الإليكترون و نقيضه أو البروتون و نقيضه أو النيوترون و نقيضه ، و كذلك الجسيمات الذرية الأخرى التي يعرفها المختصون في هذا المجال صغر شأنها أو كبر لا تظهر إلا و معها نقيضها الذي لا يعيش في مكان واحد مع نقيضه فمن المستحيل أن يجتمعا ، فإذا ما قُدِّرَ اجتماعُهما كان لابد أن يهلك أحدُهما الآخرَ ، فسبحان الذي خلق الأزواج كلها .

٤ . السائل المنوي الذي يقذفه الرجل به عدد من الحيوانات المنوية الذكور و عدد مماثل من الإناث ، فالعلماء التجريبيين بواسطة وسائلهم المجهرية بينوا وصف الحيوان المنوي الذكر بأن له وميضا و لمعانا في الرأس و أنه أسرع حركة ، بينما لا يوجد هذا الوميض و اللمعان في الحيوان المنوي المؤنث كما أنه أبطأ و أضعف في الحركة ؛ لهذا فإن ماء الرجل هو سبب تحديد نوع الجنين من ذكر أو أنثى بناء على الحيوان المنوي الذي يقوم بتلقيح البويضة إن كان ذكرا أو أنثى ، فسبحان الذي خلق الأزواج كلها !



٥ . الصبغيات (الكروموسومات) داخل النواة ، تبين نوع الكائن الحي من خلال عدد هذه الكروموسومات في النواة . فخلية الإنسان تحتوي على ستة و أربعين كروموسوما ، و خلية القرد من نوع الريسوس تحتوي على اثنين و أربعين كروموسوما ، و خلية البقر تحتوي على ستين كروموسوما ؛ بهذا نكون قد عرفنا كيفية تحديد نوع الكائن من خلال هذه الكروموسومات .

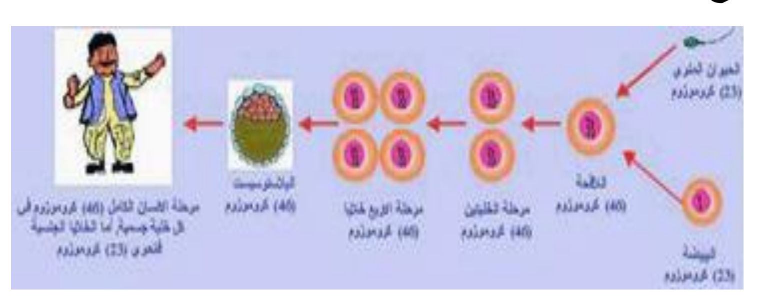


الخلايا دائمة الانقسام لتعويض مايموت منها و هي حين تنقسم لابدَّ أن يحتوي كل جزء من جزأيها الجديدين على نفس العدد من الكروموسومات و إلا تغير نمو المخلوق و شكله عن بني نوعه ، بالتالي يتبين لنا أن الكروموسومات تنشأ أزواجا ، و أن كلَّ زوجين جديدَين تمامُ العدد في كل واحد منهما كالأصل الذي انشقَّا عنه ، و يكون أحدهما بجانب الآخر كالقرين له على مستوى الكائنات ، و إذا افترضنا أن انقسام الخلية يؤدي إلى أن يأخذ كل قسم جديد نصف الكروموسومات التي كانت في الخلية الأم لأدى ذلك

إلى كارثة ؛ إذ إن الخلية بعد عدة انقسامات لها ستنقرض و تموت و بالتالي تنتهي حياة الكائن الذي يشتملها ، فسبحان الذي خلق الأزواج كلها !

٦. حين تنقسم أي خلية في الجسد تعطي في كل خلية جديدة نفس العدد من الصبغيات (الكروموسومات) ، فكل خلية من خلايا الإنسان تحتوي على ثلاثة و عشرين زوجا من الكروموسومات أي ستة و أربعين كروموسوما ، لكن هذه القاعدة لا تنطبق على خلية واحدة هي الخلية الجنسية و التي حين تنقسم تكون الخلية الناتجة عنها و المتمثلة في الحيوان المنوي أو البويضة لا تحمل ستة و أربعين كروموسوما كبقية الخلايا ، و إنما تحمل ثلاثة و عشرين فقط ، و إذا افترضنا أن الخلية الجنسية انقسمت و كان الحيوان المنوي يحمل نفس عددها من الكروموسومات أي ستة و أربعين و البويضة تحمل نفس العدد لكان الناتج عند التلقيح بين الحيوان المنوي و البويضة ينتج خلية مكونة من اثنين و تسعين كروموسوما و هذه ليست تركيبة خلية الإنسان ؛ لهذا اقتضت حكمة الخالق أن يكون الحيوان المنوي حاملا لنصف أعداد الكروموسومات و كذلك البويضة ، فإذا ما تم التلقيح كانت الخلية الأولى في الكائن الحي الجديد تحمل نفس العدد الذي كان في خليته الأصلية للإنسان أي ستة و أربعين كروموسوما ، و بالانشطار و التكاثر تتكون بقية الخلايا ، و عند التلقيح يذهب كل كروموسوم من الثلاثة و العشرين مندفعة في هذه الخلية الجديدة ، و كأنها تبحث عن مفقودها (الزوج الآخر) فإذا ما التقيا تلاصقا ، و كأن احدهما يدلي للآخر بأسراره ، و يتبادل معه المعلومات التي لا يعلمها إلا الخالق ، و التي سيتكوَّنُ منها المولود الجديد ، فسبحان الذي خلق الأزواج كلها !





٧. الصبغيات (الكروموسومات) بها السجل الوراثي للإنسان محمولا في الجينات الصغيرة المتراصة التي تظهر بالتكبير للعلماء ، و عددها في الكروموسوم الواحد عشرات الآلاف متراصة أزواجًا أزواجًا . تحمل هذه الجينات صفات وراثية (كاللون و الشكل و الصوت و الطول و القصر و البرودة ... إلخ) يأخذها المولود الجديد نصفها من الأب و النصف الآخر من الأم ، فإذا تفوقت جينة الأب في التعبير عن نفسها تعبيرا يفوق جينة الأم صار الشبه أقرب إلى الأب ، و إذا تفوقت جينة الأم في التعبير عن نفسها تعبيرا يفوق جينة الأب صار الشبه أقرب إلى الأم ، و إذا تساوى التعبير فيهما صار الشبه بالأبوين أقرب ، و قد تتنحى الجينة فلا تعبر عن نفسها إلا في الجيل الثاني أو الثالث أو الرابع فتنتقل صفات جده الأعلى ، و هذا ما أشار إليه الرسول الخاتم فيما رواه أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلاَمًا أَسْوَدَ ، فَقَالَ : هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : مَا أَلْوَانُهَا ؟ قَالَ : حُمْرٌ قَالَ : فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَأَنَّى كَانَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : أُرَاهُ عِرْقٌ نَزَعَهُ

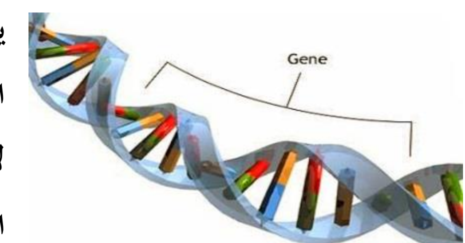




، قَالَ: فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ »(١)(عِرْق نزَعَهُ : العِرْق هو الأصل من النسب ، والمقصود أنه جاء على صفات واحدٍ من أجداده) ، فسبحان الذي خلق الأزواج كلها !

٨. الجينات التي بالكروموسوم و التي تحمل كل جينة منها صفة محددة تورّثها للكائن الحي الجديد بعد تكبيرها وجدها العلماء تتكون من شريطين ، يلتف أحدهما على الآخر ، ويحتضنه كالضفائر المجدولة ، و كثيرا ما تأتي هذه الضفائر أيضا أزواجا على شكل زوجين ، يلتف كل زوجين منها بالزوجين الآخرين ، هذين الشريطين المجدولين في الجينة الواحدة سُجِّلَ عليها الملايين و الملايين من الصفات السرية للكائن الحي ، و كأنها كلمة السر فيه ، فسبحان الذي خلق الأزواج كلها !

٩. الشريطين المجدولين في الجينة الواحدة – بحسب تجارب جيمس واتسون و فرنسيس كريك ١٩٥٢ م. الحاصلان على جائزة نوبل – تتكون من أربعة قواعد نتروجينية(أزوتية) : أدنين ، و جوانين، و سايتوزين، و ثايمين .



يتزاوج في هذه الأشرطة الجينية الأدنين مع الثايمين ، و يتزاوج الجوانين مع السايتوزين ، و لا يمكن أن يتزاوج الأدنين مع الجوانين، و لا الجوانين مع الثايمين، و لا السايتوزين مع الأدنين، و لا الأدنين مع السايتوزين ، كما لا يمكن أن تختل هذه الأزواج في أي كائن من الكائنات الحية ، و إلا كانت الكارثة الوراثية .

كل واحد من هذه القواعد النتروجينية(الأزوتية) الأربعة يتصل بسكر خاص اسمه : ريبوز ، و هذا السكر يتصل بجزيء من الفوسفات ليكون معه أيضا زوجا فلا يبتعد عنه و لا ينفصل ، و تتكرر هذه الأزواج في جزيئاتها الوراثية ملايين المرات كل واحد منها يعرف مكانه و زوجه فيقترب منه و يرتبط به ، واعلم أن الخلية الواحدة من جسم الإنسان تحتوي على ثمانية بلايين من هذه القواعد النتروجينية الأربعة المتزاوجة فيما بينها ، و كلما ولدت خلية جديدة أخذت معها هذا العدد من البلايين الثمانية إلا في الخلية الجنسية فتحمل معها أربعة بلايين فقط ليلتقي مع البويضة التي تحمل نفس العدد ، و لتتكون الخلية الأولى فيكتمل بها البلايين الثمانية ، ثم يبدأ بعد ذلك تتالي الأزواج من هذه القواعد الأربعة بإصدار أوامرها لتتكون الجينة .

من الصبغي إلى ADN مرورا بالتلوليات المتتالية
traduit et modifié par assadima

---

(١) صحيح البخاري برقم : ٦٨٤٧ ، و صحيح مسلم برقم : ٣٧٦٦ ، و اللفظ للبخاري .

و لنتذكر قول الحق جل في علاه : "سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ"(١) !

ما نراه، و ما لا نراه

لا أحد يعرف مدى اتساع و حجم هذا الكون الذي يحيط بنا ، كما لا نعرف كمية المخلوقات التي يحتويها هذا الكون ، حيث يشمل هذا الكون الذي خلقه الله سبحانه وتعالى كل ما هو موجود : من أدق جسيم دون ذري إلى الحشود المجرِّيَّة الفائقة و ما لم يكتشفه الخلق بعد من جسيمات و مخلوقات ، منها المرئي لنا و منها غير المرئي لنا ، قال تعالى : "فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَ مَا لا تُبْصِرُونَ"(٢)، و قد تحدثنا عن الخلية و النواة و الذرة و جزيئاتها على قدر معرفتنا ، و هي أمور لا تُرَى إلا بالْمِجْهَر فهي لا نراها ، و لا ندركها لتناهي صغر حجمها بالنسبة لنا .

هناك أمور أخرى لا نراها و لا ندركها لكبر حجمها ، ففي ليلة صافية يمكنك أن ترى عددا كبيرا من النجوم ، و بالرغم من أنها تبدو كنقط صغيرة من الضوء على صفحة السماء إلا أنها في الواقع أجسام كروية كبيرة تطلق مقادير عظيمة من الضوء و الحرارة ، و هي تبدو لنا صغيرة لأنها تبعد عنا ملايين الكيلومترات ؛ لذا فالفلكيون لا يقيسون المسافات الكونية بالكيلومترات بل بالسنين الضوئية، و السنة الضوئية هي المسافة التي يجتازها الضوء في سنة و تساوي نحو ٩ مليون كيلومتر . و أقرب نجم للشمس (ألفاقنطورس)يبعد عنا أكثر من ٤.٣ سنة ضوئية أي ما يزيد عن ٤٠ مليار كيلومتر ، و المجرة التي بها مجموعتنا الشمسية ، و المسماة بـ(درب التبانة) ضخمة للغاية و تحتاج المركبة الفضائية إلى ١٠٠٠٠٠ سنة ضوئية لتجتازها ، و لكي تصل المركبة إلى أقرب مجرة منا ، و هي مجرة [المرأة المسلسلة] يلزمها مليونا سنة وهي تسير بسرعة الضوء .

يقول علماء الفلك أن المجموعة الشمسية ما هي إلا جزء صغير من مجرة درب التبانة ، و يقدرون عدد النجوم في مجرتنا فيقولون أن عددها ما يقارب ١٠٠٠٠٠ مليون نجم ، و أن الضوء يستغرق مئة ألف سنة كي يقطع المسافة من طرف المجرة إلى الطرف الآخر بسرعة ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في

---

(١) سورة يس : ٣٦.

(٢) سورة الواقعة : ٣٨–٣٩.

الثانية الواحدة، و سمكها من الوسط يقطعه الضوء في عشرة آلاف سنة.

لسنا نعرف حجم الكون الذي نتواجد فيه ، لكننا نعلم أن المجرات يبتعد بعضها عن بعض بسرعات عظيمة ؛ فالكون إذًا يتمدد كمنطاد ينتفخ ، و يعتقد كثير من الفلكيين أن هذا التمدد مستمر منذ نشأة الكون ربما قبل سبعة آلاف مليون سنة حسب اجتهاداتهم ، و قد تكونت النجوم و الكواكب السيارة ببطء شديد . و النجم يطلق ضوءا و حرارة لمدى ملايين السنين ثم يخفت ضوؤه و يحتضر ، و في الوقت نفسه تتكون نجوم أخرى من السحب الغازية، هذا ما يقوله العلماء التجريبيون .



إن الكون حولك أيها المخلوق الضعيف الْمُعتَدُّ بنفسه لا تحيط به علما و لا يحيط به سوى خالقه ، في هذا الكون ما تستطيع إدراكه ، و به الكثير و الكثير مما لا تستطيع رؤيته أو الحديث عنه أو معرفة خصائصه ، ما تبصره قليل و ما لا تبصره كثير كثيرا إما لضآلة حجمه هو بالنسبة لك ، و إما لضآلة حجمك أنت بالنسبة له ، فهلا عرفتَ حجم نفسِكَ و لزمْتَ يا هذا غرسَكَ !

الرَّتْق ، و الفَتْق

يوجِّه الخطاب القرآني الحديث للكفار فيخاطبهم بقول الحق :" أَوَلَمْ يَرَ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاْهُمَا . . ."(١)، والرتق ضد الفتق ، و سبحان الله الذي يعلم مسبقا بأن اكتشاف هذه الحقيقة سيتم على يد غير المؤمنين فجاءت بداية الآية : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا . . .) ملائمة لِمَن اكتشف ، و داعيةً لِمَن لم يؤمن ، و مثبّتةً لِمَن آمَن قديما و حديثا .

إن القرآن يسمي بداية نشوء الكون بالرتق، والرتق هو الالتئام أو الالتحام ، وبالفعل أجزاء الكون كانت متراكبة على بعضها وبكثافة عالية فلا وجود للفراغ ؛ لذلك كلمة (الرَّتْق) هي الكلمة الأنسب لوصف بداية الكون من الناحية اللغوية والعلمية المكتشفة حديثا ، أي إن أجزاء الكون كانت ملتحمة ببعضها ، وتشكل مادة متجانسة ثقيلة جدًّا جدًّا ، ثم إن العلم يسمّي لحظة انفصال هذه الأجزاء عن بعضها بالانفجار ، وهذه تسمية خاطئة ؛ فلا يمكن للانفجار أن يكون منظما بهذه الطريقة المبدعة أبدا .

انفصال أجزاء الكون وتباعدها عن بعضها يتم بنظام شديد الدقة حتى إننا نجد أن النجم في السماء لو انحرف عن مساره قليلا لأدى ذلك إلى انهيار البناء الكوني، فهل هذا انفجار ، أم نظام؟!

لذلك نجد القرآن يسمي هذه العملية بالفتق (فَفَتَقْنَاهُمَا) أي شققناهما ، و كلمة (فَتَقَ) تحمل معنى النظام والدقة، فالكتلة الابتدائية

(١) سورة الأنبياء : ٣٠.

في الكون كانت منظَّمة و ليست عشوائية كما يصفها العلماء التجريبيون .

لقد بلغ ذهول العلماء في مؤتمر الشباب الإسلامي الذي عقد في الرياض ١٩٧٩ م. ذروته عندما سمعوا الآية الكريمة ، و قالوا : حقا لقد كان الكون في بدايته عبارة عن سحابة سديمية دخانية غازية هائلة متلاصقة ثم تحولت بالتدريج إلى ملايين الملايين من النجوم التي تملأ السماء ؛ عندها صرح البروفيسور الأمريكي (بالمر) قائلا: إن ما قيل لا يمكن بحال من الأحوال أن ينسب إلى شخص مات قبل ١٤٠٠ سنة لأنه لم يكن لديه تلسكوبات و لا سفن فضائية تساعد على اكتشاف هذه الحقائق فلا بد أن الذي أخبر محمَّدا هو الله ، و قد أعلن البروفيسور (بالمر) إسلامه في نهاية المؤتمر .

فسبحان الذي جمع المتناقضين لبناء هذا الكون (الرتق ، و الفتق) إنها قدرة القادر الذي لا يشاركه أحد .

البداية ، و النهاية

يقول عز وجل : "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ "(١).



البداية كالنهاية بسيطة لأنها صادرة عن القادر الذي لا ينافسه منافس ، فالله عز وجل يخبرنا بأنه سيطوي السماء كما تُطوى صفحة الكتاب ، والعجيب أن أحدث النظريات العلمية تؤكد أنه لا خطوط مستقيمة في الكون بل كله منحنٍ ، و تأمل معي كلمة (نَطْوِي) أليست هي الأنسب من كلمة ﴿ينكمش﴾ التي يقولها العلماء التجريبيون ؟

إن مصطلح (الطيّ) يعطي معنى الانحناء إذًا فالسماء لها شكل منحنٍ مغلَق ، بل إن بعض العلماء يميل إلى تسميتها بصفحة السماء ؛ الكون كله يشبه الورقة إذًا وسوف يطوي الله تعالى هذه الورقة يوم القيامة ؛ ليعود الخلق كما بدأ ، فسبحان القائل عن نفسه : "وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"(٢).

البداية و النهاية كلمتان متضادتان ، لكنَّ الله القادر على جمع المتناقضات و المتضادات جمع بينهما لتكون طريقة الإعادة ؛ فالبداية و النهاية لهذا الكون متشابهتان ، و هما بسيطتان بالنسبة لِمُوجِدِهما الذي لا إله غيره !

---

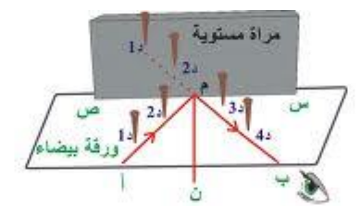
(١) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

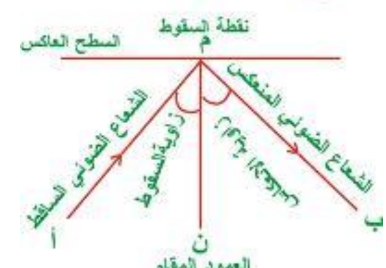
(٢) سورة الروم : ٢٧ .

الانطلاق، و الرجوع

يتساءل المهندس (عبد الدائم كحيل) في كتابه (كنوز الإعجاز العلمي): كيف يتم نقل المعلومات على سطح الكرة الأرضية بحيث تغطي كل أجزائها؟ و يجيب عن السؤال قائلا: إنها صفة مميزة للغلاف الجوي، وهي عكس و إرجاع الأمواج الكهرطيسية، وهذا ما يتيح التواصل والبث بين قارات هذا الكوكب بلا استثناء.

يوجد في الغلاف الجوي طبقات متأيِّنة كهربائيا (مكهربة) ميزتها أننا عندما نرسل موجة لاسلكية باتجاهها فإنها تنعكس، وترتد تمامًا كما يرتد الشعاع الضوئي إذا اصطدم بالمرآة العاكسة، إذًا هذه الطبقات تعمل عمل المرايا العاكسة لهذه الأمواج، وكما نعلم من قوانين انكسار الضوء أن الموجة القادمة إلى سطح عاكس ترتد بنفس زاوية ورودها لكن باتجاه آخر، وهذه الخاصية جعلت نقل الرسائل من قارة لأخرى ممكنًا بواسطة انعكاس هذه الأمواج.





ولكن فوق هذه الطبقات هنالك طبقات مغنطيسية تحيط بالأرض من كل جانب مهمة هذه الطبقات عكس و إرجاع الأشعة الكونية القاتلة القادمة من الفضاء باتجاه الأرض، فتعكسها، وتبددها في الفضاء.

أما أقرب طبقات الغلاف الجوي إلى الأرض فإن لها خصائص مهمة جدًّا، فهي تعكس حرارة الأرض، ولا تتركها تتبدد في الفضاء؛ وهذا يحافظ على معدل ثابت لدرجات الحرارة على الكرة الأرضية.

إذًا الصفة المميزة للسماء هي إرجاع أو عكس الأمواج على اختلاف أنواعها. هذه الميزة لم تكتشَفْ إلا حديثًا، بل في كل يوم يكشف العلم جديدًا يتعلق بهذه الخاصية، وهي خاصية الانعكاس، والتي سماها القرآن بـ(الرَّجْع)، والعجيب أننا نجد أن القرآن العظيم يحدثنا عن هذه الصفة، وأنها صفة مميزة للسماء يقول تعالى: "والسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ"(١)، فمن أين جاءت هذه الحقيقة الكونية في كتاب أُنزل قبل أكثر من أربعة عشر قرنا؟! إن الله تعالى الذي خلق السماء هو أعلم بصفاتها لأنه صانع ذلك كله، و أعلم بما فيها من صفات متضادة تقوم على نفعك أيها الإنسان دون أدنى جهد منك، وقد أخبرنا عن هذه الصفات لتكون برهانا لنا على أن كل كلمة في هذا القرآن هي حقٌّ من عند الله عزَّ وجلَّ.

الشمس، و القمر

منذ فجر التاريخ نُسِجَت الأساطير حول الشمس والقمر، فكان كثير من الناس الذين أضلَّهم الشيطان يسجدون لهذين المخلوقين، و لم يكن الإنسان ليدرك ما هي الشمس أو القمر، وما الفرق بينهما؟ كل ما أدركه هو أن الشمس تشرق في النهار ثم تغيب ليظهر القمر في الليل ثم يغيب، وتعقبه الشمس ...وهكذا.

(١) سورة الطارق: ١١.

في العصر الحديث تم اختراع أجهزة التحليل الطيفي التي تحلل أطياف النجوم ، وتبين تركيبها . فقد تبين أن الشمس هي كتلة ملتهبة تتفاعل ذراتها تفاعلا نوويا لتندمج ، وتعطي كميات ضخمة من الطاقة والحرارة . أما القمر فهو جسم بارد كالأرض يتلقى أشعة الشمس الحارقة ليعكسها إلى الأرض من جديد إذًا الشمس هي مصدر الضياء، وهذه حقيقة علمية، بينما القمر لا يضيءُ بل يعكس النور ؛ لذلك يمكن القول بأن الشمس هي مصدر الضوء والقمر هو مصدر النور أو العاكس لهذا الضوء ، وهنا نجد للقرآن بيانا وإعجازا وتفصيلا ، يقول تعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"(١)، فهل هناك أبلغ من هذا التصوير للحقائق العلمية؟!



وفي آية أخرى يؤكد الله تعالى على أن الشمس هي السراج المضيء ، و كما نعلم السراج هو : الوعاء الذي يوضع فيه الزيت كوقود ليحترق بتفاعل كيميائي مُصْدِرا الطاقة الضوئية ، وهذه هي الوسيلة التي استخدمها الإنسان حتى مطلع القرن العشرين عندما بدأ باستخدام المصباح الكهربائي.

إن ما يحدث داخل السراج هو عملية احتراق ، والوقود في السراج هو الزيت الذي يتفاعل مع الأكسجين في الهواء ليعطي الضوء و الحرارة و هذا ما يحدث أيضا في الشمس، فلو دخلنا لمركز الشمس لوجدنا احتراقا نوويا، الوقود فيه هو الهيدروجين الذي يتفاعل مع بعضه لينتج الضوء والحرارة أيضا ، تأمل معي قول الحق جل وعلا: "وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا"(٢)، نلاحظ كيف يميز القرآن بين عمل القمر (نُورا)، وعمل الشمس (سِرَاجا) ، و الشمس و القمر نقيضان في الظهور ، فهذا مرتبط بالليل الذي يوافقه النور من القمر ، بينما تلك مرتبطة بالنهار الذي يوافقه الضوء و الحرارة .

هذه الدقة في المصطلحات العلمية القرآنية لم تأتِ عن طريق المصادفة بل هي جاءت بتقدير العزيز العليم، القائل في محكم التنزيل : " تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَ قَمَرًا مُّنِيرًا "(٣).

---

(١)سورة يونس : ٥ .

(٢)سورة نوح: ١٦ .

(٣)سورة الفرقان : ٦١ .

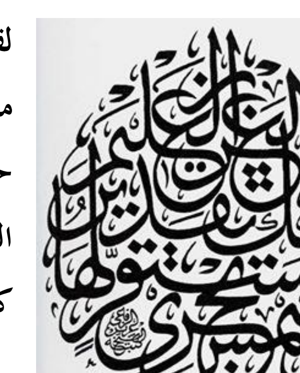
التقويم الشمسي، و التقويم القمري

قال تعالى: "وَ لَبِثُواْ فِيْ كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِيْنَ وَ ازْدَادُواْ تِسْعًا" (١).

المقصود في الآية أن أصحاب الكهف قد لبثوا في كهفهم ٣٠٠ سنة بحساب التقويم الشمسي، ويزداد العدد تسع سنوات أخرى فوق الثلاث مئة سنة ليصبح ٣٠٩ سنة بحساب التقويم القمري، و قد تأكد لعلماء الرياضيات أن السنة الشمسية أطول من السنة القمرية بـ ١١ يوما ، فإذا ضربنا الـ ١١ يوما بـ ٣٠٠ سنة يكون الناتج ٣٣٠٠ ، و بتقسيم هذا الرقم على عدد أيام السنة (٣٦٥) يصبح الناتج ٩ سنين، فهل كان بإمكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يعرف مدة مكوث أهل الكهف بالتقويم القمري و بالتقويم الشمسي من عند نفسه؟! سبحان مَن جعل هذا التقويم المرتبط حسابه بالشمس، و ذاك التقويم المرتبط حسابه بالقمر، و لا حول و لا قوة إلا بالله!

الشمس بين (الجريان، و الاستقرار)

قال تعالى: "وَ الشَّمْسُ تَجْرِيْ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيْرُ الْعَزِيْزِ الْعَلِيْمِ"(٢).



لقد قدم القرآن الكريم صورة لم تكن موجودة قبل نزوله على النبي محمد، و هي فكرة جريان كل من الشمس و القمر في فلك ، فالفكرة القديمة هي: أن المركزية للأرض ، و الشمس تدور حولها ، في حين أن الفيثاغورثيون توصلوا إلى أن الأرض تدور حول الشمس لا العكس، و أن الشمس ثابتة لا تتحرك ، و أنها مركز العالم لا الأرض ، لكن القرآن يتكلم عن فلك يدور فيه كل كوكب.

قال سبحانه: "لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ"(٣)، و قد أثبت العلم الحديث أن الشمس تسير ضمن مجرتها حول مركز المجرة بسرعة ٤٣٢٠٠ ميل في الساعة، و بما أن المسافة بيننا و بين الشمس ٩٢ مليون ميل، فإننا نراها ثابتة لا تتحرك.

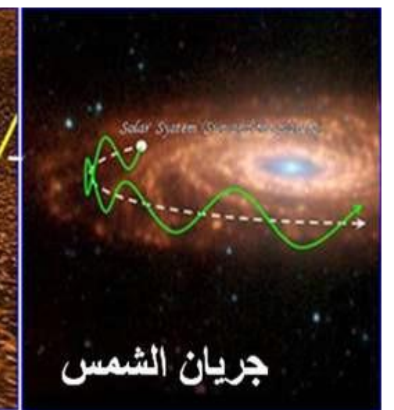
---

(١) سورة الكهف: ٢٥.

(٢) سورة يس: ٣٨.

(٣) سورة يس: ٤٠.

اكتشف العلماء أن الشمس تنجذب باتجاه مركز مجرتنا (درب التبانة)، وتدور حول هذا المركز بشكل دقيق ومحسوب تتراوح سرعة الشمس في دورانها حول مركز المجرة ٢٠٠ – ٢٥٠ كيلو متر في الثانية ، فقالوا إن الشمس تدور حول مركز المجرة، وأخيرا وجدوا أن للشمس حركة أخرى صعودًا و هبوطًا ، وحين قام العلماء بدراسة حركة الشمس (المجموعة الشمسية) لمعرفة المسار الدقيق الذي ترسمه الشمس أثناء دورانها حول مركز المجرة وجدوا أن الشمس لا تدور دورانا بل تجري جريانا حقيقيا ، وأن جريانها يشبه جريان الخيل في حلبة السباق !





عن أبي ذر رضي الله عنه قال : " كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد حين وجبت الشمس (أي: غربت) فقال صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر أتدري أين تذهب الشمس؟ قلت: الله و رسولُهُ أعْلَمُ، قال صلى الله عليه وسلم: فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها عزَّ وجلَّ فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعي من حيثُ جئتِ ، فترجع إلى مطلعها ، وذلك مستقرها – ثم قرأ : (وَ الشَّمْسُ تَجْرِيْ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)"(١).

الظلمة ، و النور

قال تعالى : "وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُوْنَ "(٢) ، و قال تعالى : "وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيْحَ..."(٣) .



حسبما تشير إليه الآيتان الكريمتان فإن الكون غارق في الظلام الدامس و إن كنا في وضح النهار على سطح الأرض ، و لقد شاهد العلماء الأرض و باقي الكواكب التابعة للمجموعة الشمسية مضاءة في وضح النهار بينما السماوات من حولها غارقة في الظلام ، فمَن كان يدري أيام محمد النبي أن الظلام هو الحالة المهيمنة على الكون ؟ و أن هذه المجرات و النجوم ليست إلا مصابيح صغيرة واهنة لا تكاد تبدد ظلام الكون الدامس المحيط بها ؛ فبدت كالزينة و المصابيح لا أكثر ؟ و عندما قُرئت هذه الآيات على مسمع أحد العلماء الأمريكيين بُهِتَ و ازداد إعجابا و دهشة بجلال و عظمة هذا القرآن ، و قال فيه : لا يمكن أن يكون هذا القرآن إلا كلام مصمِّم هذا الكون العليم بأسراره و دقائقه .

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل برقم : ٢١٣٩٠ .

(٢) سورة يس : ٣٧ .

(٣) سورة الملك : ٥ .

سبحان مَن يسر لنا وجود الليل بظلمته و النهار بضوئه متعاقبين ، و رغم تضادهما لكن لا بد لك من هذا التضاد لأن كل واحد منهما له وظيفته و خصائصه التي تستبينها من خلال هذا التضاد ، و لا غنى لك عن أحدهما بالآخر ، فالحمد لله واهب الظلمة و النور جاعل الليل و النهار .

الليل ، و النهار

قال تعالى : "... يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ..."(١)، في الآية تكوير الليل على النهار و تكوير النهار على الليل ، فكل منهما يقوم بدور التكوير على الآخر ، فهناك تكوير الليل على النهار ليخفيه فتكون ظلمة الليل ، بينما تكوير النهار على الليل ليمحوه فيكون ضوء النهار ، و بين هذين التكويرين نرى الأرض جرما كرويا يتحرك بينهما فيجعلهما يتكوران أحدهما على الآخر ، فليس غشيان الليل النهار و غشيان النهار الليل بشكل مستقيم ، و إنما بالتكوير لكل منهما على الآخر بالتبادل ، و هذا يعطي دلالة على حركة جسم كروي هو الأرض يدور حول محوره ، و هذا يوافق تفسير العلماء التجريبيين لأسباب تعاقب الليل و النهار .



الزمان بين (الجريان ، و الإيقاف)

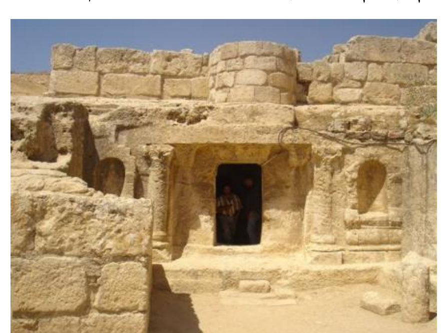
في حكايته لقصة الرجل الذي مر على القرية و سأل عن بعث أهلها ، قال تعالى : " أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "(٢) .

في تحليل الشيخ صالح المغامسي لهذه القصة قال ما معناه : " أن الله بقدرته جمع بين النقيضين في مكان واحد ؛ حيث أجرى الزمان على شيء ، و لم يُجرِه على شيء آخر ؛ فالحمارُ أجرى اللهُ عليه أحكامَ الزمان فمات وأصبح عظامًا نخرة ، بينما الطعام لم يُجرِ عليه أحكامَ الزمان ، فمكث الطعام مئة عام لم يفسد ، ولم يتغير منه شيء ، ثم بعثه الله فشاهد بعينيه أحكام الله تجري على شيء ، ولا تجري على شيء آخر ، وهذا كله بقدرة الْمُقتَدِر تبارك وتعالى "اهـ.

---

(١) سورة الزمر : ٥ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥٩ .

و نتذكر في هذا المجال قصة أصحاب الكهف فقد أجرى الله الزمان على المدينة كلها بل على مخلوقات الأرض جميعا ، بينما أوقف الله جريان الزمان على مَن كانوا داخل الكهف ؛ يتبين ذلك من سؤالهم بعد قيامهم من نومتهم ثلاث مئة سنة شمسية : " ... قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ... "(١)، فما لاحظوا على أنفسهم أثر تغير إذ لم يشيبوا و لم تتعفن ملابسهم و لا تغيرت رائحتهم



، لهذا قالوا لعلنا نمنا يوما كاملا أو جزءا كبيرا من اليوم من كثرة التعب ، و هم حين هبوا من رقودهم جياعا بعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاما ، وحين دخل المدينة أنكر الوجوه لكنه عرف الطرق ، و رأى علامات الإيمان بالمدينة ظاهرة ، و هذا لم يكن موجودا وقت خروجه و إخوانه هربا بدينهم ، إذ تغير الأشخاص و الملوك جيلا بعد جيل .يتضح ذلك في تعجب القوم من العملة التي طلبوا بها الطعام ، و من خوف الرجل على إيمانه و إخوانه بينما ملك المدينة الحالي من أهل الإيمان : " إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا "(٢)، و يبين لنا المولى عز و جل علَّة هذا الجمع بين النقيضين (إجراء الزمان و عدم إجرائه) على هؤلاء إذ يقول : " وَ كَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا ... " فهي من الأدلة المادية على قدرة الخالق على البعث من بعد الموت و إعادة المخلوق على الحالة التي مات عليها ، كما بعث هؤلاء بعد طول رقدتهم كهيئتهم ساعة رقدوا و ما النوم إلا موتة صغرى . و لكي يزداد الناس بعظيم سلطان الله بصيرة ، وبحسن حماية الله لأوليائه معرفة ، و بقدرته على إحياء الخلق و إماتتهم و إعادتهم كما كانوا معرفة و بينة ، و أنه القادر على تحقيق ما وَعَدَ ، سبحانه لا إله غيره !

الفراغ هو البناء الواقي

قال تعالى : " وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا "(٣).

و لقد أثبت العلم الحديث وجود الغلاف الجوي المحيط بالأرض و الذي يحميها من الأشعة الشمسية الضارة و النيازك المدمرة . فعندما تلامس هذه النيازك الغلاف الجوي للأرض ، فإنها تستعر بفعل احتكاكها به ، فتبدو لنا ليلا على شكل كتل صغيرة مضيئة تهبط من السماء بسرعة كبيرة قدرت بحوالي ١٥٠ ميل في الثانية ، ثم تنطفئ بسرعة و تختفي ، و هذا ما نسميه بالشهب ، فمَن أخبر محمدًا صلى الله عليه و سلم بأن السماء كالسقف تحفظ الأرض من النيازك و

---

(١) سورة الكهف : ١٩ .

(٢) سورة الكهف : ٢٠ .

(٣) سورة الأنبياء : ٣٢ .

الأشعة الشمسية الضارة؟!

إن ما نراه حولنا فراغا في أعيننا ما هو إلا بناء محكم منظم يحمي الأرض التي نعيش عليها ، لكن أعيننا لا تدرك ذلك ، أليس هذا من الأدلة القطعية على أن هذا القرآن من عند خالق هذا الكون العظيم القادر على كل شيء؟!

تحريك باطن الأرض و تثبيت ظاهرها

قال تعالى : "وَ الْجِبَالَ أَوْتَادًا "(١)، و قال تعالى : "وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ"(٢) .

بما أن قشرة الأرض و ما عليها من جبال و هضاب و صحاري تقوم فوق الأعماق السائلة و الرخوة المتحركة المعروفة باسم (طبقة السيما) ، فإن القشرة الأرضية و ما عليها ستضطرب و تتحرك باستمرار ، و سينجم عن حركتها تشققات و زلازل هائلة تدمر كل شيء ، لكن شيئا من هذا لم يحدث ، فما السبب؟!

لقد تبين منذ عهد قريب أن ثلثي أي جبل مغروس في أعماق الأرض و في (طبقة السيما) و ثلثه فقط بارز فوق سطح الأرض لذا فقد شبه الله تعالى الجبال بالأوتاد التي تمسك الخيمة بالأرض كما في الآية السابقة ، و قد أُلقِيَت هذه الآيات في مؤتمر الشباب الإسلامي الذي عقد في الرياض عام ١٩٧٩ ، و قد ذهل البروفيسور الأمريكي (بالمر) و العالم الجيولوجي الياباني (سياردو) و قالا : ليس من المعقول بشكل من الأشكال أن يكون هذا كلام بشر ، و خاصة أنه قيل قبل ١٤٠٠ سنة ؛ لأننا لم نتوصل إلى هذه الحقائق العلمية إلا بعد دراسات مستفيضة مستعينين بتكنولوجيا القرن العشرين التي لم تكن موجودة في عصر ساد فيه الجهل و التخلف كافة أنحاء الأرض.

كما حضر النقاش العالم (فرانك بريس) مستشار الرئيس الأمريكي (كارتر) و المتخصص في علوم الجيولوجيا و البحار و قال مندهشا : لا يمكن لمحمد أن يلم بهذه المعلومات ، و لا بد أن الذي لقنه إياها هو خالق هذا الكون ، العليم بأسراره و قوانينه و تصميماته .

---

(١)سورة النبأ : ٧.

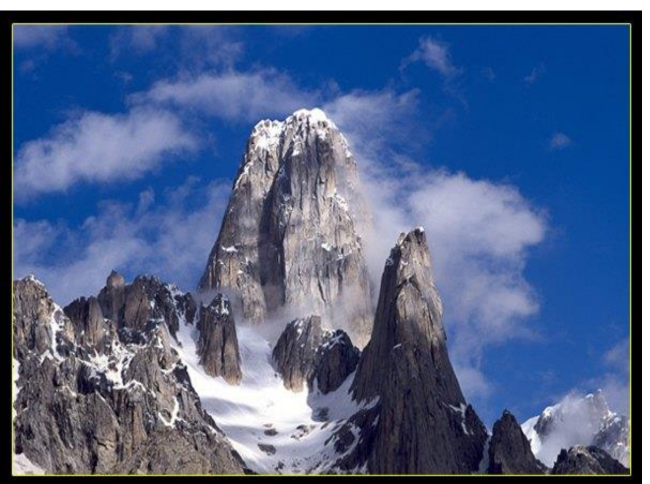
(٢)سورة لقمان : ١٠.

الجبال بين (الحركة ، و الجمود)

قال تعالى : "وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ"(١) .

كلنا يعلم أن الجبال ثوابت في مكانها ، و لكننا لو ارتفعنا عن الأرض بعيدا عن جاذبيتها و غلافها الجوي فإننا سنرى الأرض تدور بسرعة هائلة (١٠٠ ميل في الساعة) ، و عندها سنرى الجبال و كأنها تسير سير السحاب ؛ أي إن حركتها ليست ذاتية بل مرتبطة بحركة الأرض تماما كالسحاب الذي لا يتحرك بنفسه ، بل تدفعه الرياح ، و هذا دليل على حركة الأرض .

و يقول المهندس عبد الدائم كحيل : "لقد اكتشف العلماء حديثا أن الجبال تتحرك حركة خفيفة جدا بحدود بضع ميليمترات كل سنة، وهذه الحركة لا يمكن ملاحظتها أبدًا، ولكن لغة الأرقام والقياسات لعمر الأرض وشكلها قبل ملايين السنين، كل هذه معطيات تؤكد وجود الحركة للجبال مع الألواح التي تقوم عليها ، فالألواح الأرضية كما قلنا تتحرك ، وبما أن الجبال تقوم على هذه الألواح فهي تتحرك معها ، هذه هي الحركة الأولى للجبال والتي لم يتأكد وجودها إلا حديثا جدا . ولكن هنالك حركة ثانية ، فعندما تدور الأرض حول محورها تدور معها الجبال، و هذه الحركة يمكن رؤيتها مباشرة من الفضاء الخارجي ."



في بحث علمي جديد يقول العلماء: إن القمر الصناعي التابع لوكالة الفضاء الأمريكية ناسا رصد تحركات للجبال على سطح الأرض! وسبب هذه الحركات أن الجبال تعوم على طبقة أثقل منها وهي الطبقة الثانية من طبقات الأرض السبعة، وهي طبقة لزجة وشديدة الحرارة. إن قشرة الأرض والطبقة التي تليها منقسمة إلى ألواح تتحرك باستمرار أيضاً مما يؤدي إلى تصادمات وبروز جبال جديدة عبر ملايين السنين، وهذه الجبال تتحرك حركة خفية بفعل التيارات الحرارية العنيفة المتولدة تحتها. يؤكد البحث أن الطبقة الثانية والثالثة تدفعان القشرة الأرضية بقوة وبالتالي تتحرك الجبال. إن هذه الحركة التي يتحدث عنها العلماء اليوم (2010) قد تحدث عنها القرآن قبل 1400 سنة! يقول تعالى: (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) [النمل: 88]. فهذه الآية تتحدث عن حركة الجبال (وَهِيَ تَمُرُّ)، أليس هذا إعجازاً واضحاً يشهد على إعجاز هذا القرآن؟!

www.kaheel7.com أسرار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - موقع مجاني بتسع لغات

و يقول أيضا : "... و لكن السؤال : لماذا شبه الله تعالى حركة الجبال بمرور السحاب ؟ والجواب هو : أن هذا التشبيه دقيق جدا، فالغيوم في السماء تتحرك حركة شبيهة بحركة الجبال فهي تتحرك بفعل الرياح حركة بطيئة و خفيفة ، و تتحرك أيضا مع الأرض و مع الغلاف الجوي أثناء دوران الأرض حول محورها ، فالغيوم تتحرك بفعل قوى الضغط التي تولدها الرياح ، و الجبال تتحرك بفعل قوى الضغط التي تولدها حرارة باطن الأرض ."اهـ.

فالجبال ثابتة و مثبتة للأرض في حين أنها تتحرك ، لكن حركتها غير مُدرَكة لنا ؛ فسبحان مَن جعل هذا التناقض في المخلوق و جعل لكل من الحركة و الجمود حكمة بل حِكَمًا ، ظهر بعضُها لنا ، و سيظهر غيْرُهَا لِمَن بعدنا بإذن الله تعالى .

(١) سورة النمل : ٨٨ .

العَذْب، و المِلْح

قال تعالى: "وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخا وَ حِجْرًا مَّحْجُورًا"(١).

منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة لم يكن أحد على وجه الأرض يعلم شيئًا عن الحاجز بين النهر والبحر، و قد قام حديثا علماء بدراسة المنطقة حيث يصبّ النهر العذب في البحر المالح. وكانت النتيجة أن هذه المنطقة لها خصائص مختلفة كليًّا عن الخصائص الموجودة في أيّ من ماء النهر أو ماء البحر.

لقد نشأ علم حديث اسمه ميكانيكا السوائل يبحث في القوانين التي وضعها الله تعالى لتحكم أي سائل في الكون، ومن أهم السوائل بالنسبة لنا هو الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي فقال: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ"(٢)، ومن أهم القوانين التي تحكم هذا الماء قانون التوتر السطحي الذي بواسطته تحافظ كل قطرة ماء على شكلها و وجودها، ولولا هذا القانون لتبخر الماء، ولم يتماسك أبدا.

بواسطة هذا القانون الذي يشد جزئيات الماء إلى بعضها البعض تبقى البحار متماسكة أيضًا ؛ لأن قوة التوتر السطحي هذه وهي القوة التي تشد جزيئات الماء تتغير مع كثافة الماء ودرجة حرارته ونسبة الملوحة فيه وغير ذلك من العوامل، فتجد أن النهر العذب له خصائص تختلف تماما عن البحر المالح، وبالتالي هنالك اختلاف كبير بين قوة التوتر السطحي للماء العذب وتلك الخاصة بالماء المالح. هذه القوى تلتقي عند التقاء مصب النهر مع البحر، فتعمل كل قوة ضد الأخرى!



فتجد أن منطقة البرزخ أو منطقة الالتقاء للنهر مع البحر، هي منطقة تدافع وتجاذب وحركة واضطراب، وهذا ما عبَّر القرآن عنه بكلمة واحدة وهي (مَرَجَ). يقول عز وجل: "وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَ حِجرا مَّحْجُورًا "(٣)، و تأمل معي كلمة "حِجْرا مَّحْجُورًا" في الآية كيف تعبر عن جدار منيع وقوي، وهذا ما نجده فعلا، فهذه القوى الناشئة بين النهر والبحر في منطقة البرزخ هي جدار لا يمكن اختراقه.

من علم ميكانيكا السوائل نعلم بأن أي جدار يتم بناؤه يقوم على أساس دراسة القوى التي ستقع على هذا الجدار، لذلك نجد أن التعبير القرآني عن الحاجز بين النهر والبحر بأنه (حِجْر) تعبير دقيق من الناحية العلمية، كما أن هنالك فارقا في قوى الضغط التي يسببها النهر على البحر والقوة المعاكسة التي يسببها البحر على النهر، وتكون النتيجة أن هنالك منطقة متوسطة هي البرزخ، وعلى جانِبَيْهِ ضغوط مختلفة يتحملها، و كأنه جدار محصَّن وقوي.

كذلك يوجد حاجز بين كل بحرين مالحين مثلما الحال بين النهر و البحر، يحكي لنا الشيخ الزنداني فيقول: " هذا أمر لا تشاهده

---

(١) سورة الفرقان: ٥٣.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٣) سورة الفرقان: ٥٣.



الأبصار ، ولكنه أصبح الآن حقيقة واضحة وبتطور الأقمار الصناعية ودراستها واستشعارها من بعد تمكنت هذه الأقمار الصناعية أن تصور هذه المناطق البحرية (الحدود البحرية بين الكتل المختلفة). كما نرى البحار بألوان مختلفة، فنرى بعضها بلون أزرق فاتح وبعضها بلون أزرق قاتم وبعضها بلون أسود وبعضها بلون يميل إلى الأخضر ؛ هذه الألوان المختلفة السبب فيها اختلاف درجات الحرارة على سطح البحار، ولكنك لو وقفت على سطح البحر لا ترى إلا ماءً أزرق في كل هذه البحار والمحيطات. إنها حواجز لا ترى إلا بالدراسة و بالتقنيات الحديثة.

لقد كان المفسرون وهم يتعرضون لتفسير هذه الآية يقفون أمام رأيين متمايزين، جمهور المفسرين كانوا يقولون في تفسير قوله تعالى: "مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ* بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ"(١)، مرج معناها: خلط هكذا في اللغة "مرج البحرين يلتقيان" أي يلتقي بعضها مع بعض ويختلطان ، "بينهما برزخ" أي حاجز "لا يبغيان" رأي: لا يطغى أحدهما على الآخر. الرأي الثاني قالوا: كيف يكون بينهما برزخ؟ وكيف يوصفان بأنهما لا يبغيان؟ وتقولون: إن مرج معناها خلط، كيف يختلطان وبينهما برزخ؟ قد نفى الله جل وعلا بغي أحدهما على الآخر، فقالوا: إذًا الاختلاط لا يتم، وبحثوا عن معنى آخر للفظ مرج الذي يدل على الخلط ، ولكن رد عليهم الجمهور بأن استدلالهم غير صحيح، فجاءت هذه العلوم وكشفت هذه الدقائق.

أسفرت الدراسات الواسعة لخصائص البحار عن اكتشاف حواجز مائية تفصل بين البحار الملتقية، وتحافظ على الخصائص المميزة لكل بحر من حيث الكثافة والملوحة، والأحياء المائية، والحرارة، وقابلية ذوبان الأوكسجين في الماء. وبعد عام ١٩٦٢م عرف دور الحواجز البحرية في تهذيب خصائص الكتل العابرة من بحر إلى بحر لمنع طغيان أحد البحرين على الآخر فيحدث الاختلاط بين البحار المالحة، مع محافظة كل بحر على خصائصه وحدوده المحدودة بوجود تلك الحواجز، فمياه البحر الأبيض تدخل في مياه المحيط الأطلنطي، ومياه المحيط تدخل مياه البحر الأبيض، وبينهما برزخ مائي بدرجة مائلة. هذا البرزخ ينتقل فيه ماء كل من البحرين إلى البحر الآخر ،ولكنه أثناء انتقاله يفقد خصائصه ويتجانس مع البحر الذي يدخل فيه، فإذا دخل ماء البحر الأبيض إلى ماء المحيط أخذ صفات المحيط، وإذا دخل ماء المحيط إلى ماء البحر الأبيض أخذ بالتدريج في هذا البرزخ صفات البحر الأبيض، فلا يبغي أحدهما على الآخر. فتأمل كيف تأتي الكشوف، ويتقدم علم الإنسان، وتتجلى آيات الإعجاز.

تكلمنا مع البروفيسور (هاي) عن هذه الظواهر وعن هذه الآية و غيرها، ثم في النهاية وجه له السؤال: ما رأيك في هذه الظاهرة؟ نصوص نزلت قبل ١٤٠٠ عام تصف دقائق لا يمكن لبشر أن يعرفها في ذلك الزمان، وجاء العلم اليوم شاهدا بها مبينا لدقائقها فما هو رأيك؟

---

(١)سورة الرحمن: ١٩-٢٠.

البروفيسور (هاي) : إنني أجد من المثير جدا أن هذا النوع من المعلومات موجود في آيات القرآن الكريم، وليست لدي طريقة أعرف بها من أين جاءت، ولكنني أعتقد أنه من المثير للغاية أنها موجودة فيه، وأن العمل مستمر لكشف معاني بعض الفقرات.

المترجم: إذًا فقد أنكرت تماما أنها من مصدر بشري: ممن إذًا يأتي في اعتقادك أصل أو مصدر هذه المعلومات؟

البروفيسور (هاي): أعتقد أنه لا بد أن يكون من الله.

الماء، و النار

قال تعالى : " وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ "(١) ، قيل: سُجِّرَتْ مُلِئَتْ، و قيل: أوقِدَتْ و أشعِلَتْ نارا، و حتى عصر ليس بالبعيد كانت فكرة اشتعال الماء مستبعدَة من الأذهان و غريبة عن الفكر ، و نحن نؤمن بالقرآن إيمانا غيبيا سواء اتضحت الحكمة و الطريقة في الخبر القرآني أم لم تتضح لنا لثقتنا فيمَن أنزله، و مَن فسرها بالاشتعال قال: أنها توقد نارا لتعذيب الكافرين فيها.

العلوم الحديثة أظهرت لنا جانبا لا يخالف تفسير العلماء بل يضيف إلى الأمر بعدا آخر ، حيث تخبرنا أن جزيء الماء يتكون من عنصرين هما : الهيدروجين و الأوكسجين، الهيدروجين غاز قابل للاشتعال و الاحتراق و يشتعل، و الأوكسجين غير قابل للاحتراق و لا يشتعل لكنه يساعد على الاشتعال، ومعنى هذا أن جزيء الماء الواحد لو تحلل لأمكن أن يشتعل ، و لأعطانا أشد أنواع الاحتراق لتكون من هذين الغازين المشتعل و المساعد على الاشتعال، فيتبين لنا أننا لو أخذنا النص على معنى أن البحار ستشتعل فلا حرج؛ إذ إن البحار فعلا من الناحية العلمية تتكون مما يشتعل و يساعد على الاشتعال ، فسبحان مَن جعل الماء و النار يتواجدان في مكان واحد فإذا شاء أشعلها نارا، و إذا شاء أبقاها ماء! إنه القادر على كل شيء.



و يعطينا الدكتور زغلول النجار ملمَحًا آخر في مقاله المنشور بتاريخ ٢٤/١٢/٢٠٠١م. في جريدة الأهرام المصرية حين يقول: "... الله تعالى يمُنُّ علينا–وهو صاحبُ الفضل والمِنَّة– بأنه ملأ منخفضات الأرض بماء البحار والمحيطات, وحجز هذا الماء عن مزيد من الطغيان علي اليابسة منذ خلق الإنسان, وذلك بحبس كميات من هذا الماء في هيئات متعددة أهمها ذلك السمك الهائل من الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض وعلي قمم الجبال, والذي يصل إلي أربعة كيلو مترات في قطب الأرض الجنوبي, وإلي ثلاثة آلاف وثمانمائة من الأمتار في القطب الشمالي, ولولا ذلك لغطى ماءُ الأرض أغلبَ سطحها ولَمَا بقيت مساحة كافية من اليابسة للحياة بمختلف أشكالها الإنسانية والحيوانية والنباتية, وهي إحدى آيات الله البالغة في الأرض وفي إعدادها لكي تكون صالحة للعمران، من هنا كان

---

(١) سورة التكوير: ٦.

تفسير القسَم بـ(البحر المسجور) بمعني : المملوء بالماء المكفوف عن اليابسة ينطبق مع عدد من الحقائق العلمية الثابتة التي تشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق, وتشهد لسيدنا مُحَّد بن عبد الله (صلي الله عليه وسلم) بالنبوة وبالرسالة.

ثانيا: (البحر المسجور) بمعني القائم على قاع أحْمَتْهُ الصُّهَارةُ الصخرية المندفعة من داخل الأرض فجعلته شديد الحرارة . في العقود المتأخرة من القرن العشرين تم اكتشاف حقيقة حقيقة تمزق الغلاف الصخري للأرض بشبكة هائلة من الصدوع العملاقة المزدوجة التي تُكوِّنُ فيما بينها ما يعرف باسم أودية الخسف أو الأغوار, وأن هذه الأغوار العميقة تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة, ويشبهها العلماء باللحام علي كرة التنس(مع فارق التشبيه), وتمتد هذه الأغوار في كافة الاتجاهات لعشرات الآلاف من الكيلو مترات, لكنها تنتشر أكثر ما تنتشر في قيعان محيطات الأرض وفي قيعان عدد من بحارها, ويتراوح عمق الصدوع المشكلة لتلك الأغوار بين ٦٥ كيلو مترا و ٧٠ كيلو مترا تحت قيعان البحار والمحيطات, وبين ١٠٠ و ١٥٠ كيلو مترا علي اليابسة(أي في صخور القارات), وتعمل علي تمزيق الغلاف الصخري للأرض بالكامل وتقطيعه إلي عدد من الألواح الصخرية التي تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يسميه العلماء باسم نطاق الضعف الأرضي, وهو نطاق لدن عالي الكثافة واللزوجة, تتحرك بداخله تيارات الحمل من أسفل إلي أعلي حيث تتبرد وتعاود النزول إلي أسفل, وهي بتلك الحركة الدائبة تدفع بكل لوح من ألواح الغلاف الصخري للأرض إلي التباعد عن اللوح المجاور في أحد جوانبه(في ظاهرة تسمي ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات), ومصطدما في الجانب المقابل باللوح الصخري المجاور ليكون سلسلة من السلاسل الجبلية, ومنزلقا عن الألواح المجاورة في الجانبين الآخرين، وباستمرار تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض تتسع قيعان البحار والمحيطات باستمرار عند خطوط التباعد بينها, وتندفع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان في درجات حرارة تتعدي الألف درجة مئوية لتساعد علي دفع جانبي المحيط يمنة ويسرة, وتملأ المسافات الناتجة بالصهارة الصخرية المندفعة من باطن الأرض علي هيئة ثورات بركانية عارمة تحت الماء, تسجر قيعان جميع محيطات الأرض وقيعان أعداد من بحارها, وتجدد مادتها الصخرية باستمرار ، وقد أدي هذا النشاط البركاني فوق قيعان كل المحيطات, وفوق قيعان عدد من البحار النشطة إلي تكون سلاسل من الجبال في أواسط المحيطات تتكون في غالبيتها من الصخور البركانية, وقد ترتفع قممها في بعض الأماكن علي هيئة أعداد من الجزر البركانية من مثل جزر كل من : إندونيسيا, ماليزيا, الفلبين, اليابان, هاواي وغيرها, وفي المقابل تصطدم ألواح الغلاف الصخري عند حدودها المقابلة لمناطق اتساع قيعان البحار والمحيطات, ويؤدي هذا التصادم إلي اندفاع قيعان المحيطات تحت كتل القارات وانصهارها بالتدريج مما يؤدي إلي تكون جيوب عميقة عند التقاء قاع المحيط بالكتلة القارية تتجمع فيها كميات هائلة من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة التي تطوي وتتكسر لترتفع علي هيئة السلاسل الجبلية علي حواف القارات من مثل سلسلة جبال الإنديز في غربي أمريكا الجنوبية, وهنا يستهلك قاع المحيط بالتدريج تحت الكتلة القارية, وإذا توقفت عملية توسع قاع المحيط فإن هذا القاع قد يستهلك بأكمله تحت القارة مما يؤدي إلي تصادم قارتين ببعضهما, وينشأ عن هذا التصادم أعلي السلاسل الجبلية من مثل جبال الهيمالايا التي نتجت عن



اصطدام الهند بالقارة الأسيوية بعد استهلاك قاع المحيط الذي كان يفصل بينهما بالكامل في أزمنة أرضية سحيقة ،ويصاحب كل من عمليتي توسع قاع المحيط في محوره الوسطي , واصطدامه عند أطرافه بعدد من الهزات الأرضية , والثورات و الطفوح البركانية . . .



. . . بذلك ثبت لكل من علماء الأرض والبحار . بالأدلة المادية الملموسة . أن كل محيطات الأرض(بما في ذلك المحيطان المتجمدان الشمالي والجنوبي), وأن أعدادا من بحارها (من مثل البحر الأحمر), قيعانها مسجَّرة بالصهارة الصخرية المندفعة بملايين الأطنان من داخل الأرض عبر شبكة الصُّدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بالكامل وتصل إلي نطاق الضعف الأرضي, وتتركز هذه الشبكة من الصُّدوع العملاقة أساسا في قيعان البحار والمحيطات, وأن كم المياه في تلك الأحواض العملاقة.علي ضخامته.لا يستطيع أن يطفيء جذوة الصُّهارة الصخرية المندفعة من داخل الأرض إطفاء كاملا, وأن هذه الجذوة علي شدة حرارتها(أكثر من ألف درجة مئوية) لا تستطيع أن تبخر هذا الماء بالكامل, وأن هذا الاتزان الدقيق بين الأضداد من الماء والحرارة العالية هو من أكثر ظواهر الأرض إبهارا للعلماء في زماننا, وهي حقيقة لم يتمكن الإنسان من اكتشافها إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين .

ومن الغريب أن رسول الله(صلي الله عليه وسلم) –هذا النبي الأمي الذي لم يركب البحر في حياته الشريفة مرة واحدة, فضلا عن الغوص إلي أعماق البحار.قال في حديث شريف أخرجه كل من الأئمة أبو داود في سننه, والبيهقي في سننه, وابن شيبة في مصنفه عن عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) ما نصه : " لا يَرْكَبُ الْبَحْرَ إِلاَّ حَاجٌّ أَوْ مُعْتَمِرٌ أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللهِ ؛فَإِنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ نَارًا ، وَ تَحْتَ النَّارِ بَحْرًا "(١) .

النار (عذاب ، و نعيم)

إن الله خلق النار ، و امتنَّ بها علينا و هو صاحب الفضل و المنة فقال : "أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ* أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ*نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ"(٢) .

لقد جعل اللهُ النارَ جامعةً لمتضادَّين حين جعلها :

١ – تذكيرًا لنا بنار جهنَّم في الآخرة ، و ما يتعلق بها من أنواع العذاب المتعدِّدَة الْمُعَدَّة للمخالفين أمر الله ؛ لنعتبر و نرتدع و نتعظ .

٢ – متعة لنا ؛ إذا أصابنا الجوع فأنضجنا بها طعامنا ، أو أصابنا البرد فتدفأنا بحرارتها ، أو أصابنا الظلام و لم يكن لنا تبيينٌ للطريق سوى بإشعالها .

(١) السنن لأبي داوود برقم : ٢٤٩١ .

(٢) سورة الواقعة : ٧١-٧٣ .

و لا يخفى على أحد ما كان لنبي الله إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار : "قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ* قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ" (١) ، فكانت عليه سعادة و نعيما ، و يروى في الأثر :عَنِ الْمِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ كَانَ فِيهَا –مَا أَدْرِي إِمَّا خَمْسِينَ , وَإِمَّا أَرْبَعِينَ يَوْمًا– قَالَ: "مَا كُنْتُ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ قَطُّ أَطْيَبَ عَيْشًا مِنِّي إِذْ كُنْتُ فِيهَا , وَ وَدِدْتُ أَنَّ عَيْشِي وَحَيَاتِي كُلَّهَا مِثْلَ عَيْشِي إِذْ كُنْتُ فِيهَا "(٢)، فمعجزة إبراهيم ليس أن ينجو من النار بالهرب أو غيره، ولكن معجزتها أن رموه في وسط النار المتأججة فكانت بردا وسلاما عليه.

–يقال إن أعرابيًّا أوقد نارا يتَّقي بها برد الصحراء في الليالي القارسة البرودة، فلما جلس يتدفَّأ، ردّد بارتياح: "اللهم لا تحرمنيها في الدنيا ولا في الآخرة".

الخمر (عذاب، و نعيم)

إن الله حرم الخمر لما فيها من تعطيل للعقل الذي منحه الله للإنسان و ميزه به عن الحيوان، فقد بعث الله الأنبياء وأنزل الشرائع لحراسة هذا المقصد النبيل، فحرَّم قليل الخمر وكثيرها، و فيما روى أهل السنن عن النبي صلى الله عليه و سلم : "مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ"(٣)، و لقد لعن رسولُ الله في الخمر كل مُسَاهِمٍ في شيوع فسادها فيما يروى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: "لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا، وَالمُشْتَرِي لَهَا، وَالمُشْتَرَاةَ لَهُ"(٤).



فإذا عرف علة التحريم لخمر الدنيا عرف علة كونها حلالا بل جزاء للمؤمنين في الآخرة؛ فخمر الجنة ليس فيها واحدة من المزريات الموجودة في خمر الدنيا، وكما أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء).

لقد وصف الله خمر الجنة بأحسن الوصف، ونزهها عما يعتري خمر الدنيا من الفساد، فلئن كانت خمر الدنيا مما يستقبح طعمه ، فإن خمر الجنة لذة للشاربين: "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى "(٥)، ولئن كانت خمر الدنيا المحرمة تذهب العقل ،فإن خمر الجنة ليست كذلك: "يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ* بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ* لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ"(٦)، ولئن كانت خمر الدنيا تصدع رؤوس أصحابها

---

(١) سورة الأنبياء: ٦٨–٦٩.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني، (ج ١/ص ٢٠).

(٣) السنن لأبي داوود برقم: ٣٦٨٣، و السنن للترمذي برقم: ١٨٦٥، و السنن للنسائي برقم: ٥٦٠٧.

(٤) السنن للترمذي برقم: ١٢٩٥.

(٥) سورة محمد: ١٥.

(٦) سورة الصافات: ٤٥–٤٦.



وتمرضهم؛ فإن خمر الجنة منزهة عن ذلك، فالوِلْدان المخلدون يطوفون عليهم " بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ "(١)؛ فاختلاف الأحكام لاختلاف الخواص والصفات، فلقد جعل اللهُ الخمرَ حراما و عذابا لِمَن واقعها في الحياة الدنيا، و جعلها حلالا و نعيما في الحياة الآخرة لِمَن كان من أهل الإيمان، ألا له الأمر و الحكم و إليه ترجعون.

الأرض بين (الحياة، و الموت)

قال تعالى: "وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا"(٢).

عَنْ أَبِي رَزِينٍ الْعُقَيْلِيِّ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى؟ قَالَ: "أَمَا مَرَرْتَ بِأَرْضٍ مِنْ أَرْضِكَ مُجْدِبَةٍ، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهَا مُخْصِبَةً؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: كَذَلِكَ النُّشُورُ"(٣).

قال تعالى: "... وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ"(٤).



قال تعالى: " حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"(٥)، إذ تعود من بعد حياتها و ظنِّ أهلها أنهم تمكنوا فيها إلى الموت و الفناء.

هذه القدرة على الإحياء و الإماتة تجتمع للخالق، إذ يحيل الأرض الميتة إلى حية مخصبة، و يحيل الأرض المخصبة إلى ميتة مجدبة سبحانه، هو المحيي المميت وحده.

---

(١) سورة الواقعة: ١٨-١٩.

(٢) سورة الفرقان: ٤٨-٥٠.

(٣) المسند لأحمد بن حنبل برقم: ١٦٢٩٥.

(٤) سورة الحج: ٥-٧.

(٥) سورة يونس: ٢٤.

الإنسان بين (القوة، و الضعف)

قال تعالى: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ "(١).

يحدثنا القرآن عن مراحل الضعف الأولى في حياتنا التي لا نتذكرها ، لكن لعل غالب الناس شاهدوا ذلك في متابعاتهم الطبية لحمل زوجاتهم أو مشاهدة أفلام وثائقية عن مراحل تكوين الجنين في بطن الأم ، قال تعالى: " يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ..."(٢)، و قال تعالى: "وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِّنْ طِيْنٍ *ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِيْ قَرَارٍ مَكِيْنٍ *ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ"(٣)، من الآيات الكريمة السابقة يتبين لنا خلق الإنسان في مراحل على النحو التالي:

١. التراب: و دليل ذلك أن كافة العناصر المعدنية و العضوية التي يتركب منها جسم الإنسان موجودة في التراب و الطين ، و الدليل الثاني أنه بعد مماته يصير ترابا لا يختلف عن التراب في شيء .
٢. النطفة: و هي التي تخرق جدار البويضة و ينجم عن ذلك البيضة الملقحة (النطفة الأمشاج) التي تحرض الانقسامات الخلوية التي تجعل النطفة الأمشاج تنمو و تتكاثر حتى تصبح جنينا متكاملا ، كما في قوله تعالى: "إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ..."(٤).
٣. العلقة: بعد الانقسامات الخلوية التي تحدث في البيضة الملقحة تتشكل كتلة من الخلايا تشبه في شكلها المجهري ثمرة التوت (العلقة) و التي تتميز بقدرتها العجيبة على التعلق على جدار الرحم لتستمد الغذاء اللازم لها من الأوعية الدموية الموجودة فيه .

---

(١) سورة الروم: ٥٤ .
(٢) سورة الحج: ٥ .
(٣) سورة المؤمنون: ١١-١٣ .
(٤) سورة الإنسان: ٢ .

٤. المضغة: تتخلق خلايا المضغة لتعطي براعم الأطراف و أعضاء و أجهزة الجسم المختلفة فهي تتكون إذًا من خلايا مخلقة ، أما الأغشية المحيطة بالمضغة (الغشاء المشيمي ، و كذلك الزغابات التي ستتحول إلى الخلاص لاحقا) فإنها خلايا غير مخلقة، و تحت الدراسة المجهرية تبين أن الجنين في مرحلة المضغة يبدو كقطعة لحم أو صمغ ممضوغ ، و عليها علامة أسنان و أضراس ماضغة.



٥. العظام: ثبت علميا أن العظام تبدأ بالظهور في نهاية مرحلة المضغة ، و هذا يوافق الترتيب الذي ذكرته الآية "فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا".

٦. كسوة العظام باللحم: لقد ساد الاعتقاد لدى الأطباء حتى وقت ليس ببعيد، بأن اللحم يُخلق أولا ثم تُخلق العظام. لكن بعد أن تمكن العلماء من تصوير مراحل تشكل الجنين في بطن أمه وتسريع هذه العمليات بواسطة الكمبيوتر. لاحظوا شيئا مهما ، وهو أن العظام هي التي تُخلق أولا ثم تكسى باللحم! وفي هذا المقام نجد أن القرآن قد سبق العلماء قبل ١٤ قرنا للحديث عن هذا التسلسل لعملية الخلق، حيث أثبت علم الأجنة الحديث أن العضلات (اللحم) تتشكل بعد العظام ببضعة أسابيع ، و يترافق الكساء العضلي بالكساء الجلدي للجنين، و هذا يوافق تماما يقول تعالى: "فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا".

٧. الجنين المكتمل : عندما يشرف الأسبوع السابع من الحمل على الانتهاء تكون مراحل تخلق الجنين قد انتهت ، و صار شكله قريب الشبه بالجنين، و يحتاج بعض الوقت ليكبر و يكتمل نموه و طوله و وزنه و يأخذ شكله المعروف ، فيخرج خلقا آخر طفلا رضيعا ، لا يقوى على شيء في مراحل الطفولة الأولى.

(لقد أُلقِيَت هذه الآيات العظيمة في مؤتمر الإعجاز الطبي السابع للقرآن الكريم عام ١٩٨٢ م ، و ما إن سمع العالم التايلاندي (تاجاس) المتخصص بعلم الأجنة تلك الآيات حتى أعلنها على الفور و بدون تردد : (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، كما حضر المؤتمر البروفيسور الشهير (كيث مور) و هو أستاذ كبير في الجامعات الأميركية و الكندية و قال : من المستحيل أن يكون نبيكم قد عرف

كل هذه التفصيلات الدقيقة عن أطوار تخلق و تصور الجنين من نفسه ، و لا بد أنه كان على اتصال مع عالم كبير أطلعه على هذه العلوم المختلفة ألا و هو الله . و قد أعلن إسلامه في المؤتمر الذي عقد عام ١٩٨٣ م ، و سطّر معجزات القرآن باللغة العربية في كتابه الجامعي الشهير الذي يُدَرّس لطلاب الطب في كليات أمريكا و كندا .

كما لا يخفى على المتلقي ما يعرض للإنسان(١) أيا كان سِنُّهُ من قوة و ضعف في مراحل حياته ، بل على مدار اليوم الواحد إن لم يكن في الساعة الواحدة ، فهو ينتقل من ضعف إلى قوة و من قوة إلى ضعف حتى تنقضي حياته .

و يحكي لنا الشيخ الزنداني عن حوار دار مع البروفيسور (جورنجر)أستاذ في كلية الطب قسم التشريح في جامعة جورج تاون في واشنطن .

قلنا : هل هناك مصطلحات أطلقت على هذه الأطوار كالمصطلحات التي وردت في القرآن الكريم؟قال : لا .

قلنا : فما رأيك في هذه المصطلحات التي تغطي أطوار الجنين؟ بعد مناقشة طويلة معه قدم بحثا، وألقاه في المؤتمر الطبي السعودي الثامن عن هذه الأطوار التي وردت في القرآن الكريم... فيقول: إنه وصف للتطور البشري منذ تكوين الأمشاج إلى أن أصبحت كتلا عضوية، عن هذا الوصف والإيضاحات الجلية والشاملة لكل مرحلة من مراحل تطور الجنين في معظم الحالات إن لم يكن في جميعها ، يعود هذا الوصف في قدمه إلى قرون عديدة قبل تسجيل المراحل المختلفة للتطور الجنيني البشري التي وردت في العلوم التقليدية العلمية .

الشيخ الزنداني: وتطرق البحث مع البروفيسور (جورنجر)حول هذه الظاهرة التي كشفت علميا وكشفت حديثا، و إنها لتزيل الإشكال الذي كان يثيره النصارى. النصارى يقولون : ها هو ذا عيسى عليه السلام قد خلق من أم فمَن هو أبوه؟ يثيرون هذا الإشكال لا يتصورون أن يكون هناك خلق بدون أب. أجاب عليهم القرآن الكريم وبين لهم ، وضرب لهم مثلا بآدم ، قال تعالى : "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"(٢).

إننا نجد ثلاثة أنواع من الخلق :

١. آدم مخلوق بدون أب ولا أم.
٢. حواء مخلوقة بدون أم.
٣. عيسى عليه السلام مخلوق بدون أب.

---

(١)يطلق على الانسان (الجنين)وهو في بطن أمه ،و (الوليد) عندما يولد ،و (الصريخ)بعد سبعة أيام من مولده ،و (الرضيع)فترة الرضاع ،و (الفطيم) عند فطمه عنها ،و (الدرج) عندما يحبو ،و (الغلام)حتى يبلغ السابعة ،و (اليافع)حتى يبلغ العاشرة ،و (النشء) إذا بلغ العاشرة ،و (البالغ) إذا ظهرت علامات الرجولة ،و (الفتى) إذا ظهر الشارب ،و (الشاب)حتى يبلغ الثلاثين ،و (الرجل)حتى الأربعين ،و (الكهل)حتى الخمسين ،و (الشيخ)حتى الثمانين ،و (الْهَرِم) إذا تجاوز ذلك .

(٢)سورة آل عمران : ٥٩ .

والذي يقدر أن يخلق آدم عليه السلام بدون أب وأم قادر على أن يخلق عيسى عليه السلام من أم بدون أب، ومع ذلك لا يزال النصارى يجادلون، ويشاء الله سبحانه وتعالى أن يكشف لهم حجة بعد حجة وبرهانا بعد برهان. لماذا تستشكلون هذا أيها النصارى؟ قالوا: لأنا لا نرى أبدا مخلوقا يمكن أن يأتي بغير أب ولا أم.

فإذا بالعلم يكشف أن كثيرا من الحيوانات الدنيا وكثيراً من الكائنات الآن تتوالد وتنجب بدون تلقيح الذكور، فهذا النحل: جميع ذكوره عبارة عن بيض لم يلقح بماء الذكور والبيضة التي تلقح بماء الذكور تكون شغالة (أنثى)، بل لقد حدث في التقدم العلمي أن تمكن الإنسان أن ينبه بعض البيض لبعض الكائنات فتنمو هذه البيضة بدون حاجة إلى تلقيح الذكر، وها هو ذا البروفيسور (جورنجر) يحدثنا عن هذا الأمر، فيقول: في نوع آخر لتناول الموضوع فإن البيض غير المخصب لكثير من الحيوانات اللافقارية والبرمائية والثديية السفلى يمكن تنشيطه بوسائل ميكانيكية، كالوخز بالإبرة، أو بوسائل مادية كالصدمة الحرارية، أو بوسائل كيميائية بأي عدد من المواد الكيمائية المختلفة، ويستمر البيض إلى مراحل تطور متقدمة، في بعض الأجناس يعتبر هذا النوع من التطور الجيني طبيعيا. "اهـ.

وهكذا يتجلى هذا الكتاب الكريم مع مرور الزمن جيلا بعد جيل، فهو الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه.

الخوف من العدو، و الأمن من الْمُحِبِّ

قال المولى سبحانه و تعالىعن موسى عليه السلام بعد ولادته: "وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا..." (١)

هذا هو التحدي العظيم، أن يكون الإلقاء في البحر لرضيع لا يقوى على شيء هو الأمن بعينه بل هو أكثر أمنا من حضن أمه، و حدث ما هو أعجب فقد أخرجته امرأة فرعون، وعاش موسى في بيت فرعون أكبر أعدائه فمصدر الخوف هو فرعون صار الملاذ و المأمن لهذا الرضيع؛ ينفق عليه، ويعطي أمه أجر الرَّضاع، و يحبه أهل قصر فرعون مُدَّعي الألوهية.

إنه يقوم على تربية عدوه الذي سيهدد عرشه، و يقوِّض بنيان مملكته التي بنيت على الباطل، فهل بعد هذا التحدي من تحدٍّ؟ إن مصدر الرعب و الخوف هو مصدر الأمن، و صاحب العداوة هو الْمُحبُّ الْمُرَبِّي، و بعد حينٍ تنقلب الأوضاع إلى النقيض ليصبح المأمن هو مصدر الخوف، و يصبح الْمُحبُّ الْمُرَبِّي هو العدو؛ ليقضي الله أمرا كان مفعولا، أليس الأمر عجيبا؟! فمَن غير الله يستطيع أن يجمع كل هذه المتناقضات؟!

(١) سورة القصص: ٧-٨.

الذكورة، و الأنوثة

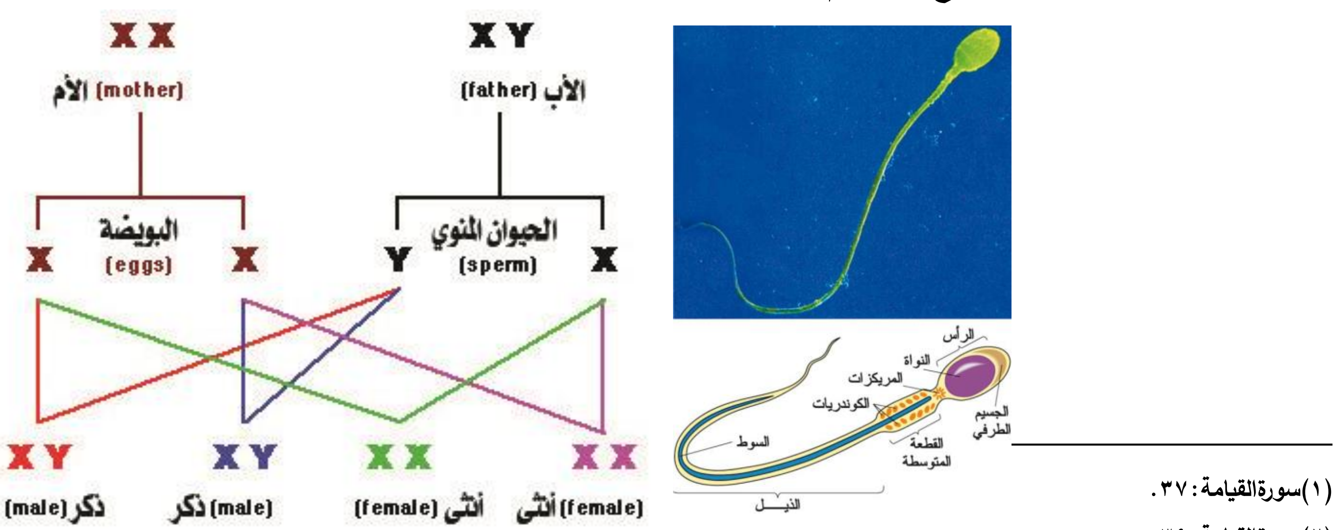
كما نعلم تتم عملية إلقاح البويضة في جسم المرأة بواسطة مَنِيّ الرجل،وأثناء عملية الجماع يقذف الرجل كمية من السائل المنوي تحتوي بداخلها مئات الملايين أو عشرات الملايين من النطف. نطفة واحدة فقط هي التي تخترق جدار البويضة وتنفذ لداخلها، أما بقية الملايين من النطف فتموت، و كل نطفة من هذه النطاف هي بمثابة حيوان منوي قادر على الولوج إلى داخل البويضة الأنثوية لتشكيل مخلوق بشري، ولكن قدرة الله تعالى تقتضي أن يكون هنالك نطفة واحدة فقط هي التي ستؤدي إلى إنجاب الطفل، و تأمل معي هذا البيان الإلهي الرائع عندما يحدد تبارك وتعالى خلق الإنسان من نطفة وليس كل المني، يقول الله تعالى: "أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى" (١).



قبل اختراع المجهر وتكبير السائل المنوي ورؤية ما بداخله من ملايين النطاف، لم يكن بالإمكان تخيُّل أن الإنسان يأتي من نطفة متناهية في الصِّغر، بل كان الاعتقاد السائد قديما أن الجنين يتشكل من كل المني المقذوف.

يحتوي الحيوان المنوي (النطفة) على (٢٣) من الصبغيات الوراثية في قلب نواته. الشيء نفسه ينطبق على بويضة المرأة التي تحوي(٢٣) صبغيا (كروموسوما).

الصبغي الذي يحدد نوع الجنين عند المرأة دائما مؤنث، بينما الصبغي الذي يحدد نوع الجنين عند الرجل هو مذكر أو مؤنث أي يحتوي على الصفتين: الذكورة و الأنوثة، فإذا كانت المرأة لا تحمل إلا صفات الأنوثة، إذًا الرجل الذي يحمل كلتا الصفتين هو الذي يحدد نوع الجنين ذكرا أم أنثى. فعندما تجتمع الصفة المؤنثة من بويضة المرأة مع الصفة المؤنثة من نطفة الرجل يكون المخلوق أنثى، لأن الأنثى لا تحمل إلا الصفة المؤنثة، بينما عندما تجتمع الصفة المذكرة من نطفة الرجل مع الصفة المؤنثة من بويضة المرأة فالناتج هو ذكر، لأن ماء الذكر يحتوي على الصفتين المتضادتين: الذكورة والأنوثة، وهنا يتجلى معنى قول الله عز وجل مخاطبا الإنسان: "فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى"(٢). وتأمل معي كلمة (مِنْهُ) تجد ضميرَ الغائب عائدًا على الرجل، ولم يقل (منها)! إذًا القرآن سبق علم الطب منذ أربعة عشر قرنا بكشف الحقائق العلمية التي تبين أن الذكر هو الذي يتوقف عليه تحديد نوع الجنين ذكرا كان أو أنثى؛ لأن خلاياه الجنسية تحوي النوعين، ألا تخشع قلوبنا أمام معجزة خلق الإنسان؟!



(١)سورة القيامة: ٣٧.
(٢)سورة القيامة: ٣٩.

الرؤية، و عدم الرؤية

قَال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : " إِذَا دَخَل أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ، فَيَقُولُونَ :أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَ جَلَّ"(١).

في حيز الدنيا طلب نبي الله موسى أن يرى ربه، فأتاه الرد بأنه لن يمكنه الرؤية، قال الحق عن ذلك: "وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ"(٢).

في الدنيا لا يمكن رؤية الله ، فهناك حجاب مضروب على أبصارنا يمنعنا من رؤية أشياء كثيرة ، فنحن لا نرى كثيرا من الأشياء فيما حولنا ، فكيف نطلب ما فوق كل ذلك؟

رؤية المؤمنين ربَّهم في الآخرة رؤية إكرام ونعيم وسرور، فهذه للمؤمنين في الجنة وللمؤمنين في عرصات القيامة، و هي من الطمأنينة لهم، و هي ممنوعة عن الخلق في الدنيا ، و متاحة لهم في الآخرة ، فقد منع الله سبحانه أبصار خلقه عن الرؤية في الدنيا ،فإذا شاء كشف ذلك عنهم ؛ فالحجاب راجع إلى المخلوق إذ هو غير مُمكَّن من الرؤية سابقا ، فإذا أراد الله جعله قادرا على ذلك في الوقت المناسب.

و نشير هنا إلى أنكَ غير مُمكَّن من رؤية الأجرام المتناهية في الكِبَر البعيدة عنا و كذلك الكائنات المتناهية في الصِّغَر المحيطة بنا و الملائكة و الجن ...إلخ ، والتي قد يتمكَّن غيرُكَ من رؤيتها فيما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِذَا سَمِعْتُمُ الدِّيَكَةَ تَصِيحُ بِاللَّيْلِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، فَسَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الحَمِيرِ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا، فَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"(٣)، هذا يعني أن الديك يرى المَلَك و الحمار يرى الشيطان في حين أنك لا ترى هذا و لا ذاك ، و لقد ثبت عن عائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– : "خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ"(٤)، و معلوم بما لا يحتاج لذكر دليلٍ أن الأنبياء مثلا و هم بشر يمكِّنُهم اللهُ من رؤية هذه المخلوقات ، فسبحان مَن أعطى و منع، و هو الحكيم العليم.

---

(١)صحيح مسلم برقم: ٤٦٧.
(٢)سورة الأعراف: ١٤٣.
(٣)السنن للنسائي برقم: ١٠٧١٣.
(٤)صحيح مسلم برقم: ٧٦٨٧.

الجحيم حرارة شديدة ، و برودة شديدة

روي عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِى بَعْضًا . فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِى الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِى الصَّيْفِ فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ "(١) .

فهذه النار التي أعدها الله عذابا للكافرين و العصاة من خلقة تنفسها في الصيف هو السموم (الحر الشديد) ، و هو معلوم نشعر بالضيق و نهرب منه بالتقنيات الحديثة حسب طاقتنا ، أما تنفسها في الشتاء هو الزمهرير (البرودة الشديدة) الذي نجد أثرا منه في بلادنا ، و في بعض المناطق قد يؤدي إلى التجمد و تساقط الأطراف ، و روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ كَعْبًا قَالَ: " إِنَّ فِي جَهَنَّمَ بَرْدًا هُوَ الزَّمْهَرِيرُ يُسْقِطُ اللَّحْمَ عَنِ الْعَظْمِ حَتَّى يَسْتَغِيثُوا بِحَرِّ جَهَنَّمَ"(٢)، أعاذنا الله و إياكم من شر النار في الدنيا و الآخرة .

و نذكر قصة طريفة في هذا السياق :

يحكى أنَّ هناك شاباًّ ذهب للدراسة في أحد البلاد الشيوعية ، وبقي فترة من الزمن ، ثم رجع لبلاده واستقبله أهلها أحسن استقبال ، ولما جاء موعد الصلاة رفض الذهاب إلى المسجد ، وقال : لا أصلي حتى تحضروا لي أكبر شيخ يستطيع الإجابة على أسئلتي الثلاثة . أحضر الأهل أحد العلماء ، فسأل الشابَّ : ماهي أسئلتك ؟

قال الشابُّ : وهل تظن باستطاعتك الإجابة عليها عجز عنها أناس كثيرون قبلك ؟

قال الشيخ : هات ما عندك ، ونحاول بعون الله . قال الشابُّ : أسئلتي الثلاثة هي :

١ – هل الله موجود فعلا؟ و إذا كان كذلك أرني شكله؟

٢ – ماهو القضاء والقدر؟

٣ – إذا كان الشيطان مخلوقا من نار ،فلماذا يلقى فيها ، و هي لن تؤثر فيه؟

ما أن انتهى الشاب من الكلام حتى قام الشيخ ، وصفعه صفعة قوية على وجههجعلته يترنح من الألم ، صرخ الشابُّ : لِمَ صفعتني هل عجزت عن الإجابة؟

قال الشيخ : كلا ، و إنما صفعتي لك هي الإجابة . قال الشابُّ : لم أفهم ؟!

قال الشيخ : ماذا شعرت بعد الصفعة ؟ قال الشابُّ : شعرت بألم قويٍّ .

قال الشيخ : هل تعتقد أن هذا الألم موجود ؟ قال الشابُّ : بالطبع ، وما زلت أعاني منه .

قال الشيخ : أرني شكله . قال الشابُّ : لا أستطيع .

---

(١) صحيح مسلم برقم : ١٤٣٢ .

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني ، (٥/ ٣٧٠) .

قال الشيخ : فهذا جوابي على سؤالك الأول كلنا يشعر بوجود الله بآثاره وعلاماته ، ولكن لا نستطيع رؤيته في هذه الدنيا ، ثم أردف الشيخ قائلا : هل حلمت ليلة البارحة أن أحدا سوف يصفعك على وجهك ؟

قال الشابُّ : لا . قال الشيخ : هل أخبرك أحد بأنني سوف أصفعك ، أو كان عندك علم مسبق بها ؟

قال الشابُّ : لا . قال الشيخ : فهذا هو القضاء والقدر لا تعلم بالشيء قبل وقوعه ، ثم أردف الشيخ قائلا : يدي التي صفعتُكَ بها مِمَّ خُلقَتْ ؟ قال الشابُّ : من طين ؟

قال الشيخ : وماذا عن وجهك ؟ قال الشابُّ : من طين أيضًا .

قال الشيخ : ماذا تشعر بعد أن صفعتك ؟ قال الشابُّ : أشعر بالألم .

قال الشيخ : تمامًا ، فبالرغم من أن الشيطان مخلوق من نار ، لكن الله جعل النار مكانا أليما للشيطان .

بعدها اقتنع الشاب ، وذهب للصلاة مع الشيخ ، وحَسُنَ إسلامه .

و مما أجاب به العلماء في هذه القضية (مسألة تعذيب الجن المخلوقين من النار بالنار) :

- لا يلزم القول أن الجن خلقوا من نار أن يكونوا الآن نارا ، كما أن الإنس خلقوا من تراب وليسوا الآن ترابا ، كذلك الجان كان نارا في الأصل ، قال صلى الله عليه و سلم : " إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ ... " (١) ، و لو كان الشيطان نارا لاحترق الإنسان ، فتبين الفرق بين كون الشيطان نارا وكونه مخلوقا من نار .
- إذا كان الإنس خلقوا من تراب وقليل منه يؤذيهم ، فإن دفنوا تحته ماتوا ، وإن ضربوا به (الفخار مثلا) جرحوا أو ماتوا ، فكذلك ليس غريبا أن يكون الجن قد خلقوا من النار ويعذبون بالنار .
- لو سلمنا جدلا أن الشيطانَ نارٌ الآن وأراد الله أن يعذبه بنار جهنم ، فإن الله تعالى على كل شيء قدير ، لا يعجزه شيء في الأرض و لا في السماء .
- روى الإمامان في صحيحيهما و اللفظ لمسلم أن أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – « اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا . فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ » (٢)

(١) صحيح البخاري برقم : ٢٠٣٩ ، و صحيح مسلم برقم : ٥٨٠٧ .

(٢) صحيح البخاري برقم : ٣٢٦٠ ، و صحيح مسلم برقم : ١٤٣٢ .

مكان الجراثيم، و محل التطهير

قال صلى الله عليه و سلم : "جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَ طَهُورًا"(١).

لقد اكتشف العلماء في بحث جديد وجود مضادات حيوية في تراب الأرض، وهذه المضادات يمكنها تطهير وقتل أعْنَد أنواع الجراثيم، بما يُثبت أن التراب مادة مطهرة.



وفي دراسة جديدة يقول العلماء فيها : إن بعض أنواع التراب يمكن أن تزيل أكثر الجراثيم مقاومة ؛ ولذلك هم يفكرون اليوم بتصنيع مضاد حيوي قاتل للجراثيم العنيدة مستخرج من التراب ، وبعد تجارب طويلة في المختبر وجدوا أن التراب يستطيع إزالة مستعمرة كاملة من الجراثيم خلال ٢٤ ساعة، نفس هذه المستعمرة وُضعت من دون طين فتكاثرت ٤٥ ضعفًا ، و نذكر هنا حديث الرسول صلى الله عليه و سلم : " طُهُورُ إِنَاءِ أَحَدِكُمْ إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أولاَهُنَّ بِالتُّرَابِ"(٢) ، مما يبين بعض الإعجاز العلمي الوارد في حديث الرسول الكريم ؛ فتراب الأرض يحوي مضادات حيوية، ولولا هذه الخاصية المطهرة للتراب لَمَا استمرَّتْ الحياةُ بسبب التعفنات والفيروسات والجراثيم التي ستنتشر وتصل إلى الإنسان فتقضي عليه، إلا أن رحمة الله اقتضت أن يضع في التراب خاصية التطهير ليضمن لنا استمرار الحياة هذا التراب الذي نعتبره مصدر الوسخ و القذارة علمنا أنه مصدر التطهير ، و هو أصل خِلْقَة الإنسان الأول أبينا أدم عليه السلام، و كما في التراب من متناقضات تجد في بني آدم كذلك، فكِّرْ قليلا !

الذبابة جناح للداء، و جناح للدواء

قَال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ، ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءً والأُخْرَى شِفَاءً "(٣) ، و في رواية أخرى قَالَ : " فِي أَحَدِ جَنَاحَيِ الذُّبَابِ سُمٌّ، وَ فِي الآخَرِ شِفَاءٌ، فَإِذَا وَقَعَ فِي الطَّعَامِ فَامْقُلُوهُ فِيهِ، فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ السُّمَّ، وَيُؤَخِّرُ الشِّفَاءَ"(٤).

لقد اكتشف العلماء التجريبيون أن الذباب يحمل على جناحه الكثير من الجراثيم الخطيرة، و بعد تجارب عديدة خلال عدة سنوات تبين لهم أن الذباب بنفس الوقت يحمل المضادات الحيوية والفيروسات القاتلة للجراثيم، إذًا يمكن القول بأن الداء والدواء موجودان في ذبابة واحدة.

---

(١) صحيح البخاري برقم : ٥٦ .

(٢) صحيح مسلم برقم : ٦٧٧ .

(٣) صحيح البخاري برقم : ٣٣٢٠ .

(٤) السنن لابن ماجة برقم : ٣٥٠٤ .

حيث يقع الذباب على الفضلات والمواد القذرة والبراز وما شابه ذلك، فيحمل بأرجله كثيرا من الجراثيم الْمَرَضِيَّة الخطرة ، و يقع الذباب على الأكل فيلمس بأرجله الملوثة الحاملة للمرض هذا الطعام أو هذا الشراب، فيلوثه بما يحمل من سُمٍّ ناقعٍ، أو يتبرز عليه فيخرج الجراثيم الدقيقة الْمُمْرِضَة .

فإذا حُمِلَت الذبابةُ من الطعام، وألقيت خارجه دون غمس بَقِيَتْ هذه الجراثيم في مكان سقوط الذباب، فإذا التهمها الآكل وهو لايعلم دخلت فيه الجراثيم، فإذا وجدت أسبابا مساعدة تكاثرت، وأحدثت لديه المرض، فلايشعر إلا وهو فريسة للحمى طريحا للفراش .

أما إذا غُمِسَت الذبابةُ كلُّها أحدثت هذه الحركة ضغطا داخل الخلية الفطرية الموجودة مع جسم الذبابة ، فيزداد توتر السائل داخلها زيادة تؤدي لانفجار الخلايا، وخروج الإنزيمات الحاملة لجراثيم المرض والقاتلة له، فتقع على الجراثيم التي تنقلها الذبابة بأرجلها فتهلكها وتبيدها، فيصبح الطعام طاهرا من الجراثيم الْمَرَضِيَّة .

وفي ذلك يقول العلماء: وقد وجدنا لكون أحد جناحي الذباب داء والآخر دواء وشفاء فيما أقامه الله من عجائب خلقه وبدائع فطرته شواهد ونظائر، منها: النحلة يخرج من بطنها شراب نافع ويكمن في إبرتها سم ناقع، والعقرب تهيج الداء بإبرتها ويتداوى من ذلك بِجِرْمِهَا(١)، وفي الطب: يُحضَّر لقاح من ذبيب الأفاعي والحشرات السامة يحقن به لديغ العقرب أو لديغ الأفعى، بل وينفع في تخفيض آلام السرطان أيضًا ، كما إن الطب الحديث استخرج من مواد مستقذَرة أدوية حيوية قلبت فن المعالجة رأسًا على عقب، مثل: "البنسلين" استخرج من العفن، و "الستربتومايسين" من تراب المقابر .... إلخ، أو بمعنى أدقّ من طفيليات العفن وجراثيم تراب المقابر .

فسبحان مَن أنزل الداء و الدواء و جعله في مكان واحد أحيانا !

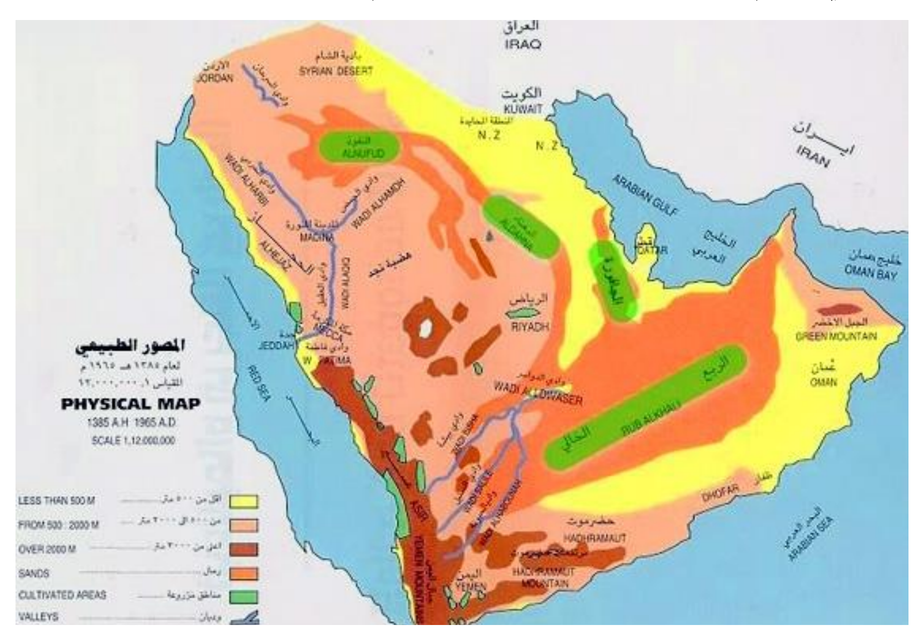
الصحاري، و المروج

قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ، وَ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَ أَنْهَارًا"(٢) .

(١) أي: بجسدها .

(٢) صحيح مسلم برقم: ٢٣٨٦ .

لم تكن أرض العرب وقت كلام الرسول و إلى عهد قريب إلا صحراء جرداء – في معظمها – يتنقل فيها العربي خلف بئر المياه ، و هنا نجد النبي الكريم تحدث بدقة فائقة عن حقيقة علمية ، لم يتمكن العلماء من رؤيتها إلا قبل سنوات قليلة ، لقد اكتشف العلماء حديثا أن منطقة شبه الجزيرة العربية كانت ذات يوم مليئة بالمروج والأنهار ، ولا تزال آثار مجاري الأنهار حتى يومنا هذا ؛ دلت على ذلك الصور القادمة من الأقمار الصناعية، والتي تظهر بوضوح العديد من الأنهار المطمورة تحت الرمال في جزيرة العرب.



يصرح كبار علماء الغرب في وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) اليوم بأن الصور الملتقطة بالرادار للصحراء أظهرت أن هذه المنطقة كانت ذات يوم مغطاة بالبحيرات والأنهار ، وكانت البيئة فيها مشابهة لتلك التي نراها في أوربا .

إن صحراء الربع الخالي والجزيرة العربية عموما و التي تنعدم بها الحياة إلى حد كبير لقرون عديدة ، كانت ذات يوم مغطاة بالأنهار والغابات الكثيفة والمروج، وكانت الحيوانات ترعى بكثرة فيها، ويؤكدو نعودة هذه الأرض كما كانت في المستقبل، وهذا ما أشار إليه الحديث النبوي الشريف لصورة الحياة و الموت على أرض واحدة، و في هذا الصدد يحكي لنا الشيخ عبدالمجيد الزنداني فيقول :

" لقد كان البروفيسور (كرونر) لا يترك لنا فرصة يمكنه أنْ يفِرَّ منها إلا فَرَّ سأذكر مثالا على ذلك، ونحن نتناقش معه كيف كانت بلاد العرب ، لقد سألناه : هل كانت بلاد العرب بساتين وأنهارا؟

فأجاب : نعم، فقلنا : متى كان هذا؟ قال : في العصر الجليدي الذي مر بالأرض . إن الجليد يتراكم في القطب المتجمد الشمالي ثم يزحف نحو الجنوب، فإذا اقترب من جزيرة العرب قربا نسبيا طبعا تغير الطقس ، وتكون بلاد العرب من أكثر بلاد العالم بساتين وأنهارا، قلنا له : وهل ستعود بلاد العرب بساتين وأنهارا؟

قال : نعم، هذه حقيقة علمية .

فعجبنا كيف يقول هذه حقيقة علمية ، وهي مسألة تتعلق بالمستقبل . فسألناه : لماذا؟

قال : لأن العصر الجليدي قد بدأ، فهذه الثلوج تزحف من القطب المتجمد الشمالي مرة ثانية نحو الجنوب ، وهي في طريقها لتقترب من المناطق القريبة من بلاد العرب .

ثم قال: إن من أدلتنا على ذلك ما تسمعون عنه من العواصف الثلجية التي تضرب في كل شتاء المدن الشمالية في أوروبا وأمريكا ، هذه من أدلة العلماء على ذلك، لهم أدلة كثيرة إنها حقيقة علمية. فقلنا له: إن هذا الذي تذكره أنت لم يصل إليه العلماء إلا بعد حشد طويل من الاكتشافات ، وبعد آلات دقيقة يسرت لهم مثل هذه الدراسات لكنا قد وجدنا هذا مذكورا على لسان محمد النبي الأمي قبل أكثر من ١٤٠٠ عام. قال عليه الصلاة والسلام في الحديث: "لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا..."(١)، أي: بساتين وأنهارا .



فقلنا له: من قال لمحمد صلى الله عليه وسلم أن بلاد العرب كانت بساتين وأنهارا؟ فأجاب على الفور قال: الرومان.

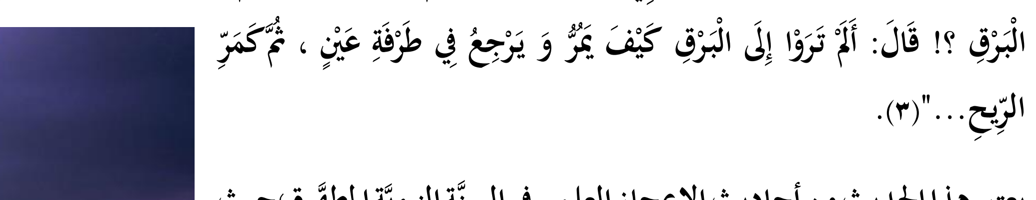
فتذكرت قدرته على التخلص من المآزق فقلنا: إذًا نوجه له سؤالا آخر ، فقلنا له: ومَن أخبره بأنها ستعود مروجا وأنهارا؟

لقد كان يفر إذا أحرج وإذا وجد فرصة، ولكنه إذا وجد الحقيقة يكون شجاعا، ويعلن رأيه بصراحة قال: إن هذا لا يمكن أن يكون إلا بوحي من أعلى. وبعد مناقشتنا معه علق على هذه المناقشة بكلمته هذه: "أعتقد أنك لو جمعت كل هذه الأشياء، وجمعت كل هذه القضايا التي بسطت في القرآن الكريم والتي تتعلق بالأرض وتكوين الأرض والعلم عامة، يمكنك جوهريا أن تقول: إن القضايا المعروضة هناك صحيحة بطرق عديدة، ويمكن الآن تأكيدها بوسائل علمية، ويمكن إلى حد ما أن نقول: إن القرآن هو كتاب العلم المبسط للرجل البسيط وإن كثيرا من القضايا المعروضة فيه في ذلك الوقت لم يكن من الممكن إثباتها ، ولكنك بالوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع فيه أن تثبت ما قاله محمد –صلى الله عليه وسلم– منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة".

الشيخ الزنداني: وصدق الله القائل في كتابه: "إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ"(٢).

شعاع البرق نازل، و صاعد

في حديث المرور على الصراط قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "... فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ. قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ ؟! قَالَ: أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَ يَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ..."(٣).



يعتبر هذا الحديث من أحاديث الإعجاز العلمي في السنَّة النبويَّة المطهَّرة ؛ حيث تبيَّن التطابق الكامل بين الكلام النبوي الشريف، وبين ما كشفه العلماء مؤخرا من

(١) مسند أحمد بن حنبل برقم: ٨٨١٩.
(٢) سورة ص: ٨٧–٨٨.
(٣) صحيح مسلم برقم: ٥٠٣.

عمليات معقدة ودقيقة تحدث في ومضة البرق ، إذ وجد العلماء أن أي ومضة برق لا تحدث إلا بنزول شعاع من البرق من الغيمة باتجاه الأرض ورجوعه! و في هذا الحديث إشارة إلى أن الرسول الأعظم قد تحدَّث عن أطوار البرق بدقة مذهلة نزولا و صعودا ، بل وحدَّد زمنها أيضا، وربما نذهل إذا علمنا أن الزمن اللازم لضربة البرق هو الزمن ذاته اللازم لطرفة العين! وهذا ما أخبر به النبي الأعظم ؛ فقد وجد العلماء أن البرق يتألف من عدة أطوار أهمها طور المرور وطور الرجوع، وأن زمن ومضة البرق هو ٢٥ ملي ثانية الذي هو نفس زمن طرفة العين، أليس هذا ما حدثنا عنه النبي قبل أربعة عشر قرنا ؟! فسبحان الذي علَّم نبيه ذلك !

مركز اتخاذ قراري، و ليس بيدي

في حديث دعاء تفريج الكربات قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "...نَاصِيَتِي بِيَدِكَ..."(١).

وفي هذا تسليم من النبي الكريم إلى الله تعالى، بأن كل شأنه لله، وأن الله يتحكم فيه كيف يشاء، ويقدر له ما يشاء، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد على أهمية هذه المنطقة من خلال دعائه وتسليمه لله عز وجل، وهذه معجزة تشهد على صدقه ؛ إذ كيف علم بأهمية هذه المنطقة في زمن لم يكن لأي واحد على وجه الأرض علم بذلك؟! يحكي الشيخ الزندانيحول هذه القضية، فيقول:

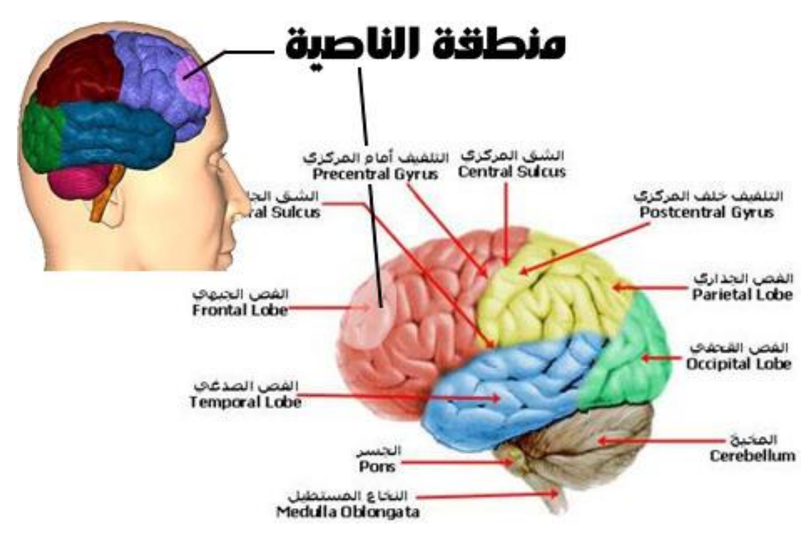
"وصف القرآن الناصية بأنها كاذبة خاطئة كما قال تعالى: "نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ"(٢)، والناصية لا تنطق فكيف يُسنَدُ إليها الكذبُ ؟ ولا تجترح الخطايا فكيف تُسنَدُ إليها الخطيئةُ؟ لقد أزال البروفيسور (مُحَّد يوسف سكر) عني هذه الحيرة التي صاحبتني خمسة عشر عاما عندما كان يحدثني عن وظائف المخ ، فقال: إن وظيفة الجزء الأمامي من المخ الذي يقع في ناصية الإنسان هي توجيه سلوك الإنسان، فقلت له: وجدتها! قال: ماذا وجدت؟ قلت: وجدت تفسير قوله تعالى: "نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ" فقال: دعني أراجع كتبي ومراجعي، وبعد مراجعته لتلك الكتب والمراجع أكد الأمر ، وقال: إن الإنسان إذا أراد أن يكذب فإن القرار يتخذ في الفص الجبهي للمخ الذي هو جبهة الإنسان وناصيته، وإذا أراد الخطيئة فإن القرار كذلك يتخذ في الناصية ، ثم عرضت الموضوع على عددٍ من العلماء المتخصصين، منهم البرفسور (كيث إل مور)الذي أكد أن الناصية هي المسئولة عن المقايسات العليا وتوجيه سلوك الإنسان، وما الجوارح إلا جنود تنفذ هذه القرارات التي تتخذ في الناصية؛ لذلك فالقانون في بعض الولايات الأمريكيةيجعلعقوبة كبار المجرمين الذين يرهقون أجهزة الشرطة هي استئصال الجزء الأمامي من المخ (الناصية) لأنه مركز القيادة والتوجيه ليصبح المجرم بعد ذلك كطفلٍ وديع يستقبل الأوامر من أي شخص...

... وعندما قدم البرفسور (كيث إل مور) البحث المشترك بيني وبينه حول الإعجاز العلمي في الناصية، في مؤتمر دولي عقد في القاهرة، لم يكتف بالحديث عن وظيفة الفص الجبهي في المخ الناصيةعند الإنسان، بل تطرق إلى بيان وظيفة الناصية في مخاخ الحيوانات المختلفة، وقدم صُوَرًا للفصوص الجبهية في عدد من الحيوانات قائلا: إن دراسة التشريح المقارن لمخاخ الإنسان والحيوان

---

(١)صحيح مسلم برقم: ٢٣٨٦.

(٢)سورة العلق: ١٦.



تدل على تشابه في وظيفة الناصية ، فالناصية هي مركز القيادة والتوجيه عندالإنسان وكذلك عند كل الحيوانات ذوات المخ، فلفت قوله ذلك انتباهي إلى قوله تعالى: " مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"(١)، و تذكرت أيضا بعض أحاديث –النبي صلى الله عليه وسلم– في الناصية كقوله: " اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ . . ."(٢)، وكقوله: " أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ. . ."(٣)، وكقوله: "الْخَيْلُ معقود فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"(٤)،فإذا جمعنا معاني هذه النصوص نستنتج أن الناصية هي مركز القيادة والتوجيه لسلوك الإنسان، وكذا سلوك الحيوان "اهـ.

بعد ما علمناه علميا عن الناصية كمركز لاتخاذ القرار و توجيه السلوك، تبين لنا أن أفضل المتوكلين عليه الصلاة و السلام قد أسلمها لخالقه، و هذا هو بيان حقيقي لمعنى كلمة "الإسلام" أي الاستسلام لله، بأن يكون قرارُك و سلوكُك لا بيدِك أنت بل بيد مَن خلقك، و ذلك حين يوافق قرارُك ما ارتضاه الله لك من الحلال و الحرام، فتأتي ما أحله الله لك و أمرك به، و تبتعد عما كرهه الله لك و نهاك عنه؛ لأنه الأعلم بالأصلحلمخلوقاته.

الأطيب، و الأخبث

قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: " أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَ إِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَ هِيَ الْقَلْبُ"(٥).

يشير الرسول إلى موضع واحد في الجسد يحمل نواة الصلاح أو الفساد للجسد كله: القلب. إنه موضع إمداد الجسد ماديا و شعوريا، كما أنه موضع الأمراض الشعورية كالحسد و الحقد و الغرور . . . إلخ.

---

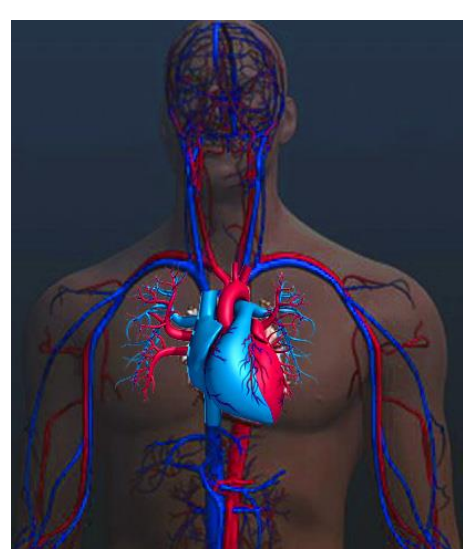
(١)سورة هود: ٥٦.

(٢)صحيح مسلم برقم: ٢٣٨٦.

(٣)صحيح مسلم برقم: ٧٠٦٤.

(٤)صحيح البخاري برقم: ٢٨٥٠.

(٥)صحيح البخاري برقم: ٥٢،و صحيح مسلم برقم: ٤١٧٨.



ذُكِرَ أنَّ لقمان الحكيم أعطاه سيّده شاةً و أمره أن يذبحها ، و يأتيه بأخبث ما فيها . فذبحها ، و أتاه بقلبها و لسانها . ثم أعطاه شاةً أخرى و أمره أن يذبحها ، و يأتيه بأطيب ما فيها . فذبحها ، و أتاه بقلبها و لسانها ، فسأله عن ذلك فقال له : " يا سيدي لا أخبث منهما إذا خبثا ، و لا أطيب منهما إذا طابا " .

فسبحان مَن جعل موضعا واحدا هو الأخبث و هو الأفضل ، و ذلك بناء على ما يُحدِّدُهُ صاحبه من مخزوناته فيه (اعتقادات و توجهات و مشاعر) تعطي لجوارحه القوة الدافعة و الاتجاه المناسب له !

حبيبك ، و بغيضك

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – يرفعه قال : " أحبِبْ حبيبَكَ هونًا ما ، عسى أن يكونَ بغيضَكَ يومًا ما ، وأبغِضْ بغيضَكَ هونًا ما ، عسى أن يكونَ حبيبَكَ يومًا ما "(١) . (صححه الألباني)

إن التوسط في كل شيء و الاقتصاد مطلوب ، و التوسط في الحب و البغض كليهما آكد حتى إذا وَجَدْتَ(٢) على مَن تحب فلا تندم ، و إذا أحببت مَن كنتَ تبغضه لا تستحيي من ذلك ؛ حيث لم تكن مُغَالِيًا في المحبة أو البغض ، فالإسراف في طرفي الأمر يوقع في الحرج ، و القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فقد تحب شخصا ثم يعود الحبيب بغيضا أو العكس ، و روى البخاري : " ... حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : لاَ يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا ، وَلاَ بُغْضُكَ تَلَفًا ، فَقُلْتُ : كَيْفَ ذَاكَ ؟ قَالَ : إِذَا أَحْبَبْتَ كَلِفْتَ كَلَفَ الصَّبِيِّ ، وَ إِذَا أَبْغَضْتَ أَحْبَبْتَ لِصَاحِبِكَ التَّلَف "(٣) .

و من أفضال الشدائد عليك أنها حين تصيبك تكشف لك معدن الآخَر بلا رَيْب ، فتتبين وقتها من استحقاقه لمحبتك أو بغضك ، قال الشاعر :

جزى الله الشدائد كل خير ... و إن كانت تغصِّصُني بـريقي
و ما شكـري لها إلا لأني ... عرفت بها عدوي من صديقي

(١) السنن للترمذي برقم : ١٩٩٧ .

(٢) أي : حزنت و غضبت .

(٣) الأدب المفرد للبخاري برقم : ١٣٢٢ .

******–هل الكلام في القرآن متناقض؟

على مأدبة القرآن الكريم

قال تعالى: " أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا "(١) ، و عبر العصور دائما ما يروج الكفرة و الملاحدة أكاذيبَ تشكيكا في الكتاب المنزل على خاتم الرسل ، و لعله من المعلوم أن بعض القساوسة المنتسبين للمسيح يعكفون على دراسة القرآن الكريم طلبا للشبهات و رغبة في إظهار تناقض في آياته ، و سمعنا عن الكثير منهم قد آمن بهذا الكتاب بعد أن كان من ألدِّ أعدائه نتيجة إبحاره فيه ، فسبحان الهادي إلى سواء الصراط !

فهناك منهم مَن يقول : إن كثيرا من الآيات في القرآن فيها تناقض ، و يحاولون جاهدين إثبات أنالكثير منالآيات تناقض معنى آياتأخرى ، و لله الحمد أن الله هو الذي تكفل بحفظ كتابه الخاتم فسخر له أسبابا ، و لعل من هذه الأسباب أن قيَّض في كل عصر من العلماء مَن يواجه هذه الادعاءات و يفندها و يرد عليها ، مستعينا بفتوحات الله عليه ، و متعلما مِمَّن سبقه إلى هذا المضمار من علمائنا الأفذاذ رحمهم الله وجزاهم الله عنا خيرا ، و ما أنا إلا ناقل عنهم بعضا مما فتح الله به عليهم من الخير و الحجة الداحضة للشبهات حتى يتبين لنا كذب هذه الافتراءات ، و مَن أراد التوسع فليذهب إليها في مظانِّها ، و سيجد من الخيرات ما لذ و طاب .

و تعريف التناقض أنه : من أحكام العقل يكون بين أمرين كليين لا يجتمعان أبدا في الوجود في محل واحد ، ولا يرتفعان أبدًا عن ذلك المحل بل لا بد من وجود أحدهما وانتفاء الآخر ، مثل الموت والحياة . فالإنسان يكون إما حيًّا وإما ميتا ، ومحال أن يكون حيًّا و ميتًا في آن واحد ؛ لأن النقيضين لا يجتمعان في محل واحد ، ومحال أن يكونَ إنسانٌ ليس حيًّا ولا ميتًا في آن واحد ، وليس فى القرآن كله صورة من صور التناقض العقلي إلا ما يدعيه الجهلاء أو المعاندون ، و إليكم مقتطفات منها تجلية للأمر .

١ – عدم التبديل ، و التبديل

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر بين الآية من سورة يونس : " ... لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ... "(٢) ، و الآية من سورة النحل : " وَ إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ... "(٣) .

و الردُّ على هذه الشبهة : أنه لا وجود للتناقض ، فلغة العرب تُعجِزُ أصحابَهَا فما بالنا بِجُهَّالها ؛ لأن قوله تعالى في سورة يونس : " لا تبديل لكلمات الله " معناه : لا خُلْفَ لوعده و لا تغيير لقوله عما قال ، لكنه يُمْضي لخلقه مواعيدَه و ينجزها لهم ، و لا تبديل لقضاء الله الذى يقضيه في شؤون الكائنات فيتسع معنى التبديل هنا ليشمل سنن الله وقوانينه الكونية ، و قد عبر عنها القرآن في مواضع أخرى بالسنن وهي القوانين التي تخضع لها جميع الكائنات ، الإنسان والحيوان والنبات والجمادات ، قال تعالى : " سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا "(٤) ، حيث إن الكون يجري ويتفاعل وفق السنن الإلهية التي ليس في مقدور قوة في الوجود أن تغيرها أو

---

(١) سورة النساء : ٨٢ .

(٢) سورة يونس : ٦٤ .

(٣) سورة النحل : ١٠١ .

(٤) سورة الفتح : ٢٣ .

تعطل مفعولها ، و ذلك هو المقصود بـ" كلمات الله " التي لا نجد لها تبديلا ، ومن هذه الكلمات أو القوانين والسنن الإلهية النافذة كالموت ، فهل بمقدور أحد مهما كان أن يعطل هذه السنة الإلهية ، فيوقف سيف المنايا ، ويهب أحد الأحياء خلودا في هذه الدنيا ؟!

الآية الأخرى : "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ" تعنى أنه : إذا نسخنا حكم آية، فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى ، و الله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدّل و يغير من أحكام لتناسب حالهم ، قال المشركون : إنما أنت مفترٍ .

فلكل من الآيتين مقام خاص و توجُّهٌ مختلف ، ولكن الحقدة جعلوا الكلمات بمعنى الآيات زورًا و بهتانًا ؛ ليوهموا الناس أن في القرآن تناقضا ، و لعل في تذييل الآية رد بليغ عليهم و على مَن شاكَلَهُم : "بل أكثرهم لا يعلمون" .

٢ – عدم التغيير ، و التغيير

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر بين الآية من سورة الحِجْر : "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"(١)، و الآية من سورة الرعد: "يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ"(٢) .

و الردُّ على هذه الشبهة : أنها لا تعارض بينهما ؛ لأن الآية الأولى إخبار من الله بأنه حافِظٌ كتابها القرآن الكريم من التبديل و التحريف والتغيير ومن كل آفات الضياع ، وقد ظل القرآن محفوظا من كل ما يمسه مما مس كتب الرسل السابقين عليه ، و من أشهرها التوراة المنزلة على نبي الله موسى –عليه السلام– و التي لُفِّقَ لها ما ليس منها و غُيِّرَ فيها ، والإنجيل الذى أنزله الله على عيسى –عليه السلام– في حين أنهم بعد تحريفهم له و تغييرهم لآياته جعلوه منسوبا لأشخاص متعددين ، و هذا هو الْمُعتمَد لديهم الْمُصدَّق عندهم !

أما الآية الثانية: " يمحو الله ما يشاء ويثبت " فهي إخبار من الله بأنه هو وحده المتصرف في شئون العباد و أقدارهم دون أن يحدَّ من تصرفه أحد ، فإرادته ماضية و قضاؤه نافذ ، قال تعالى : "يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ"(٣)، يحيي ويميت ، يُغني ويفقِر ، يُصحُّ ويُمْرِضُ ، يُسْعِدُ ويُشْقِي ، يعطي ويمنع ، لا رادَّ لقضائه ، ولا معقِّبَ على حكمه ، كتب كل ذلك في كتاب عنده هو اللوح المحفوظ أم الكتاب ، و يبين لنا ذلك ما روي عن الرسول صلى الله عليه و سلم أنه قال : "لاَ يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلاَّ الْبِرُّ ، وَ لاَ يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلاَّ الدُّعَاءُ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ"(٤) .

أما و إن معنى كل آية يسير في طريقٍ متجها إلى كتاب غير طريق الآية الأخرى ؛ فإن القول بوجود تناقض بينهما ضرب من الْخَبَل .

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) سورة الرعد : ٣٩ .

(٣) سورة الرحمن : ٢٩ .

(٤) سنن ابن ماجة برقم : ٤٠٢٢ .

٣- يوما بألف ، و يوما بخمسين ألف

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر بين قوله تعالى : "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ "(١)، و قوله تعالى : "تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ و الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ "(٢) .

و الردُّ على هذه الشبهة : أن هذه الشبهة تصيدوها من اختلاف زمن العروج (الصعود) إلى السماء في آية السجدة ألف سنة وفي آية المعارج خمسون ألف سنة ، ومع هذا الفارق العظيم فإن الآيتين خاليتان من التناقض لأنهما عروجان لا عروج واحد ، وعارجان لا عارج واحد ؛ فالعارج في آية السجدة الأمر ، والعروج عروج الأمر ، والعارج فى آية المعارج هم الملائكة ، والعروج هو عروج الملائكة .

اختلف العارج والعروج فى الآيتين فاختلف الزمن فيهما قصرا أو طولا ، وشرط التناقض.لو كانوا يعلمون.هو اتحاد المقام .

وقد أكد النبيُّ هذا الطول ليوم القيامة ، و هو يحكي عن عذاب تارك الزكاة: " مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَ لاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّى مِنْهَا حَقَّهَا إِلا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ "(٣)

وأما الألف سنة فلا علاقة لها بيوم القيامة، وإنما وردت في سياق الحديث عن مدة نزول الأمر من الله ثم عروجه إليه ، وهو منطوق الآية وصريحها،ومصداقه في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "فِي قَوْلِهِ (وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ) قَالَ: ارْتِفَاعُهَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَسِيرَةُ مَا بَيْنَهُمَا خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ"(٤).

ينفذ الله ما قضاه من السماء إلى الأرض فنزول الأمر "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ" في خمس مئة عام ، ثم يعرج إليه (يصعد) خبر ذلك في مثلها "ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ" في خمس مئة عام ، فهذه الألف سنة .

---

(١)سورة السجدة : ٥ .

(٢)سورة المعارج : ٤ .

(٣)صحيح مسلم برقم : ٢٣٣٧ .

(٤)سنن الترمذي برقم : ٣٦٠٥ .

٤ – ثلة، و قليل

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر بين قوله تعالى : "ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ* وَ قَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ "(١)، و قوله تعالى : "ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ* وَ ثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ "(٢).

و الردُّ على هذه الشبهة : أن هذا الاختلاف سببه اختلاف مقام الكلام ؛ لأن الله عز وجل قسم الناس (في سورة الواقعة) يوم القيامة ثلاثة أقسام. فقال: " وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً"(٣) ، "فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ"(٤) ، "وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ"(٥) ، "وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ"(٦) ، ثم بين مصير كل قسم من هذه الأقسام فالسابقون السابقون لهم منزلة عليا فهم : " المقربون في جنات النعيم " ، ثم بيَّن أن الذين يتبوؤون هذه المنزلة فريقان : ثُلَّة أي : جماعة من السابقين الأولين كثيرين ، وقليل من الأجيال المتأخرة ؛ وذلك لأن السابقين الأولين بلغوا درجات عالية من الإيمان وعمل الباقيات الصالحات ، ولم يشاركهم من الأجيال المتأخرة عن زمنهم إلا قليل في مثل عملهم الصالح الخالص .

أما أصحاب اليمين أو الميمنة فبلاؤهم في الإسلام أدنى من بلاء السابقين الأولين ؛ لذلك كانت درجاتهم في الجنة أدنى من درجات السابقين الأولين ، و بيَّن أن الذين يتبوؤون هذه المنزلة فريقان : ثُلَّة أي : جماعة من السابقين الأولين كثيرين ، و ثُلَّة أي : جماعة من الأجيال المتأخرة كثيرين؛ وذلك لأن فرصة العمل بما جعلهم أصحاب اليمين متاحة في كل زمان .

بهذا يتضح لنا أن الآيتين كل منهما يهدف إلى طائفة غير الأخرى ، و نظرًا لاختلاف أعمالهم كان اختلاف الكلام عنهم و عن مكانتهم و عن أعدادهم .

٥ – النهي عن الفسق، و الأمر بالفسق

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر بين قوله تعالى : "وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا "(٧)، و قوله تعالى : "وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ "(٨).

---

(١)سورة الواقعة : ١٣–١٤.
(٢)سورة الواقعة : ٣٩–٤٠.
(٣)سورة الواقعة : ٧.
(٤)سورة الواقعة : ٨.
(٥)سورة الواقعة : ٩.
(٦)سورة الواقعة : ١٠.
(٧)سورة الإسراء : ١٦.
(٨)سورة الحجرات : ٧.

و الردُّ على هذه الشبهة : أنه لم يظهر في منطوق الآية صريحا حقيقة ما أمر به الله، فالآية تقول : "أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا" ، ولم تحدد حقيقة المأمور به ولا تفصيله، لكن مفهوم الآية يدل على أن الله أمرهم بالطاعة "فَفَسَقُواْ فِيهَا" بعصيانهم لأوامر الله، فالفسق هو الخروج عن الطاعة ، والعرب تقول إذا خرجت الرطبة من قشرها : قد فسقت الرطبة من قشرها ، وكأن الفأرة إنما سميت فويسقة لخروجها من جُحرها على الناس ، والفِسْق الخروج عن الأمر ، وفسق عن أمر ربه أي خرج"(١).

من هذا تبين أن فسقهم هو خروجهم عن أمر الله الذي أمرهم بالصالح فخرجوا عن أمره، والله عز وجل لا يأمر إلا بالصالح ، ولا يدعو تبارك وتعالى إلى الفاحشة ولا إلى السيء من القول أو الفعل ، قال تعالى : "وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ"(٢).

أما الآية من سورة الحجرات فتبين بعض ما كرهه الله لعباده ، و من ذلك الفسوق الذي هو كما قلنا الخروج عن طاعة الله ، و هو مما تتوافق فيه الآيتان و لا تتناقضان .

٦- صوم مريم ، و أكل مريم و شربها

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر بين قوله تعالى : "إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ..."(٣)، و قوله تعالى : "وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا* فَكُلِي وَاشْرَبِي ..."(٤).

و الردُّ على هذه الشبهة : أنه لدينا صيام و لدى مَن سبقنا من الأمم صيام ، لكن لكل منا طريقته التي يصوم بها و التي هي من وضع الْمُشرِّع ، و معلوم لدينا و لديهم أن صيامَ مريم –عليها السلام– صيامٌ عن الكلام لا صيامٌ عن الطعام والشراب ، و ذلك يوضحه قوله تعالى : "إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا"(٥) ، و هذا اجتزاء للكلام كما نرى ليلبِّس على الناس معارفهم ، و الله سبحانه يشرع لكل قوم ما يراه الأصلح لهم ، و الحمد لله أننا نعبُدُ الله حسبما أَمَرَ هُوَ ، لا حسب أهواء الناس .

---

(١) راجع :لسان العرب لابن منظور (١٠/٣٠٨).

(٢) سورة الأعراف : ٢٨ .

(٣) سورة مريم : ٢٦ .

(٤) سورة مريم : ٢٥-٢٦ .

(٥) سورة مريم : ٢٦ .

٧- ما أغفلنا، و أغفلنا

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر في قوله تعالى : "...مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ..."(١)، إذ لا شك أن القرآن لا يشتمل على أكثر العلوم من المسائل الأصولية والطبيعية والرياضية والطبية، ولا على الحوادث اليومية، بل ولا على كل قصص الأنبياء؛ فإذًا لا يكون كلامه هذا مطابقا للواقع بل مناقض له؛ فهو يقول ما أغفلنا شيئا في حين أنه أغفل أشياء كثيرة .

و الردُّ على هذه الشبهة : أنهم جهلوا أو تجاهلوا أن هذه الآية لا تتعلق بالقرآن بل باللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء .

قال الطبري : "...فالرب الذي لم يضيّع حفظَ أعمال البهائم والدوابّ في الأرض، والطير في الهواء حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها ، وأثبت ذلك منها في أم الكتاب ، وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء ، أحرى ألا يُضيع أعمالكم ، ولا يُفرِّط في حفظ أفعالكم التي تجترحونها أيها الناس ، حتى يحشركم فيجازيَكم على جميعها إن خيرًا فخيرًا ، و إن شرًّا فشرًّا"(٢).

والآية بمنطوقها واضحة في الدلالة على هذا المعنى ، ومثلها قول الله تعالى : "وَ مَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ"(٣)، فالكتاب الذي حوى مقادير الخلائق و أرزاقها هو اللوح المحفوظ لا القرآن الكريم.

ثم لو فرضنا أن القرآن هو مقصود بقوله تعالى: "...مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ..."فإن هذا العموم يفهم منه العقلاء مَعْنًى مخصوصًا يُفهَمُ من السياق ؛ إذ من السخف والخبل أن يظن ظانٌّ أن النبي حين قرأ هذه الآية قصد أن القرآن يحوي أسماء الناسفي كل العصور ، أو أطعمة الأقوام من كل الشعوب ، أو أسماء الحيوانات التي خلقها الله، فهذا لا يخطر ببال عاقل ولو كان كافرًا بالقرآن ، لأنه سيحمل العموم في قوله : "مِن شَيْءٍ"على المعنى المخصوص اللائق به ككتاب ديني، أي ما فرطنا في الكتاب من شيء يُصلِحُ حياةَ الإنسان في دنياه وأخراه، فالقرآن حوى كل ما تحتاجه البشرية مما تختص بذكره النبوات(٤).

٨- الذبح لولدك ، و افتداء ولدك

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر في قوله تعالى : "...قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ..."(٥)، فهو أمر بالذبح ، ثم أمره بافتداء الذبيح في قوله تعالى : "وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ"(٦) ، و هذا تناقض في الأمر .

---

(١)سورة الأنعام : ٣٨ .
(٢)جامع البيان للطبري (١١/٣٤٥).

(٣)سورة هود : ٦ .
(٤)أمثال هذا العموم –الذي يراد به خصوصٌ يفهمه العقلاء –كثير في القرآن وفي كلام العرب وحديث العقلاء ،كقوله تعالى عن ملكة سبأ : "وَ أُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ " (النمل : ٢٣)، فلم يفهم منه سليمان عليه السلام –ولا العقلاء من بعده –أن ملكة سبأ أوتيت الطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية، بل معناه عند جميع العقلاء : أنها أوتيت من كل شيء يؤتاه الملوك عادة، ومثله أيضا في كلام الناس –اليوم –كثير ،كقول الأستاذ : لم ينجح أحد من الطلاب ،ومقصوده –بلا ريب –الحديث عن طلاب مادته أو فصله أو مدرسته فحسب ،فهو عموم يراد به معنى مخصوص ، (و يعلق عليه علماء الأصول بقولهم : العام الذي أريد به الخصوص) .

(٥)سورة الصافات : ١٠٢ .

(٦)سورة الصافات : ١٠٧ .

و الردُّ على هذه الشبهة: أن اللهَ ابتلى نبيَّهُ إبراهيمَ عليه السلام من خلال الرؤيا التي رآها في منامه –و رؤيا الأنبياء حق و وحي– قال تعالى: "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ "(١)، فلما امتثل إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام– أمْرَ الله ورأى المولى صِدْق استسلامهما وانقيادهما و إخلاصهما؛ افتداه اللهُ بكبش أُمِر إبراهيم بذبحه، وبذلك نسخ الله الأمر بذبح الابن بأمر جديد، وهو ذبح الكبش فِداء للذبيح إسماعيل عليه و على نبينا السلام، يخبرنا الحق عن هذا الاختبار العظيم و نتيجته فيقول: "قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ* وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ"(٢). فهل ترى من تناقض في هذا أيها اللبيب؟!

٩– حلال، و حرام

زعم أصحاب الشبهات: إن تناقضا يظهر في قوله تعالى: "...حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ..."(٣)، فهو جعل الشيء حلالا، ثم حرمه بعد فترة، و هذا تناقض في الأمر.

و الردُّ على هذه الشبهة: أن الذي يضع حكم الحلال و الحرام هو الله اللطيف بعباده الخبير بهم و بما يُصلِحُهُمْ، و يَصلُحُ لهم على اختلاف الزمان و المكان.

و التحريم لِمَا كان حلالا قد يكون بسبب:

١ – التشديد للأحكام و العقوبة من الله لعصاة بني آدم، كما حرم الله على بني إسرائيل بعض ما كان حلالا لهم قبل ذلك، قال تعالى: " فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا* وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا"(٤).

٢ – المراعاة للحال من باب التدرج في الحكم كما حدث في حكم الخمر؛ حيث حرَّم اللهُ الخمرَ بالتدريج مراعاة لأحوال العرب الذين كانوا يعاقرون الخمر، و يتاجرون بها، و يعيشون عليها، فأراد الله أن ييسر عليهم ترك هذه العادة، فأول مَلمَح في قوله تعالى: "وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ "(٥)حين فصل الله السَّكَر عن الرزق الحسن فيما ينتجه الناس من البلح و العنب و هذا إبعاد لها عن دائرة الحُسْن و الحلال، و بالتالي فهي في دائرة غير حسنة تابعة للحرام، و نسير درجة أخرى في قوله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ

---

(١)سورة الصافات: ١٠٢.
(٢)سورة الصافات: ١٠٥–١٠٧.
(٣)سورة النساء: ١٦٠.
(٤)سورة النساء: ١٦٠–١٦١.
(٥)سورة النحل: ٦٧.

لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ..."(١) ، فالخمر فيها منافع محدودة كالتجارة لكن فيها من الإثم والضرر ما هو أعظم، وهذا كافٍ عند الكثيرين للتنبُّه إلى خطرها والامتناع عنها درءًا لضررها، واستغناء عن منفعتها المالية ، ثم بعد أن تشبع المسلمون بهذا المعنى وامتنع الكثير منهم عن معاقرة الخمر نزل قوله تعالى: "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ"(٢) ، فامتنع جميع المسلمين عن تناولها سائر النهار لأنها تشغل عن الصلاة وتفسدها ، فتضايَقَ عليهم وقتُ شربها ، فلم يجدوا لها وقتًا إلا ما بين صلاة العشاء إلى الفجر وهو وقتُ نومهم وراحتهم، وما بين الفجر والظهر وهو وقتُ أعمالهم ، وقد أحسَّ الصحابةُ لما نزلت هذه الآية أن الله يشدد عليهم في الخمر ، فدعا عمرُ ﷺ اللهَ فقال: " اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) . قَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا. "(٣) ، فتغيُّرُ حكم الخمر و نسخُهُ في آيات القرآن مرتبط بأحوال الناس ومراعاة مصلحتهم بالتدريج في التخلص من عادة شرب الخمر ، كحال الطبيب الذي يعطي مريضه دواء ، ثم يستبدله بدواء آخر في أجل كان يرقبهلتحسن حال المريض، فهذا من حِذْقِهِ، ولو عدَّه بعض السفهاء قلة علم وضعف معرفة.

و النسخ في القرآن لا يقع من النبي صلى الله عليه و سلم ،بل هو فعل إلهي محض لا دخل للنبي فيه، قال تعالى: "قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ "(٤)، وإن ما يعتبره المسلمون قرآنا ليس كل ما نزل على النبي من الوحي، بل ماأثبته الله في العرضة الأخيرة لجبريل، وهو يعرضه على النبي في آخر رمضان أدركه النبي قبيل وفاته .

هذا المعنى يخبر عنه أنس بن مالك ﷺ بقوله: " أُنْزِلَ فِي الَّذِينَ قُتِلُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قُرْآنٌ قَرَأْنَاهُ ثُمَّ نُسِخَ بَعْدُ (بَلِّغُوا قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَ رَضِينَا عَنْهُ)"(٥)، و يوضحه قول عمر ﷺ: (أَقْرَؤُنَا أُبَيٌّ، و أَقْضَانَا عَلِيٌّ، وَ إِنَّا لَنَدَعُ مِنْ قَوْلِ أُبَيٍّ، وَ ذَلِكَ أَنَّهُ يَقُولُ: لاَ أَدَعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِن رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَ قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مَثْلِهَا(٦))"(٧).

١٠ – يهدي، و يضل ... فكيف يعذب؟

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر في قوله تعالى : "...وَ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا "(١)، فهو قد ذكر في الآية ما يفيد أن الله هو الذي يهدي و هو الذي يضل ، فتعذيبُ الله لِمَن أضَلَّهُ مُناقِضٌ لعدل الله .

---

(١) سورة البقرة: ٢١٩.

(٢) سورة النساء: ٤٣.

(٣) السنن للترمذي برقم: ٣٠٤٩، والسنن للنسائي برقم: ٥٥٤٠، والسنن لأبي داود برقم: ٣٦٧٢.

(٤) سورة يونس: ١٥.

(٥) صحيح البخاري برقم: ٢٨١٤.

(٦) سورة البقرة: ١٠٦.

(٧) صحيح البخاري برقم: ٤٤٨١.

و الردُّ على هذه الشبهة : أن إضلال الله للناس ليس ابتداءً منه سبحانه ، و إضلال الله لخلقه ابتداء مُحَالٌ على عَدْل الله تبارك وتعالى ، قال جل و علا : "وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"(٢)، فقد خلق الناس جميعًا على الفطرة موحّدين ، لذا خطب النبي الناس فقال صلى الله عليه و سلم: " إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا وَإِنَّهُ قَالَ لِي : كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي فَهُوَ حَلاَلٌ ، وَ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلُّهُمْ ، وَ إِنَّهُ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ. . ."(٣)، وهكذا فالله عز وجل خلق البشر مؤمنين، وإنما ضل من ضل باتباعهم للشياطين أي بإرادتهم واختيارهم ، و لكي تقوم حجة الله على عباده فإنه وهبهم العقل؛ ليميزوا به بين سبيل الخير وسبيل الشر ، قال تعالى : "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ "(٤)، و لذلك أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب، ولو كانت الهداية والإضلال جبرية حتمية لما كان من ضرورة لإرسال النبيين قال عز و جل : "رُّسُلا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"(٥).

فإضلال الله لهؤلاء الذين أضلهم كان بمقتضى أفعالهم السيئة؛ إذ أضلهم لاختيارهم العماية ورفْضِهم الهداية، فالله يضل من اختار الضلال، وفي المقابل هو يهدي من اختار الهدى والرشاد ، وقد نبه القرآن على هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله : "فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ"(٦).

سبحان الذي جمع القدرة على الهداية و الإضلال ، و أعطانا مع ذلك القدرة على الاختيار !

١١ – علم أزلي ، و علم حادث

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر في قوله تعالى : ". . .إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا"(٧)، و هذه الآية تقول بعلم الله الأزَلِيّ ، في حين قد ذكر في آيات أخرى ما يفيد أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد حدوثها مثل قوله : "الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا. . ."(٨)، و مثل قوله: ". . .وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ. . ."(٩).

و الردُّ على هذه الشبهة : أن القرآن نسب إلى الله العلم الْمُطلَق بكل شيء، فهو الذي يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، والآيات القرآنية في هذا الصدد لا تكاد تحصى لكثرتها، مثل قوله عز و جل : "وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

(١)سورة الإسراء : ٩٧ .

(٢)سورة التوبة : ١١٥ .

(٣)صحيح مسلم برقم : ٧٣٨٦ ،والسنن للنسائي برقم : ٨٠١٧ .

(٤)سورة البلد : ١٠ .

(٥)سورة النساء : ١٦٥ .

(٦)سورة الصف : ٥ ،وقد ورد مثل هذا في آيات كثيرة ذكرت أن الله لا يهدي الظالمين ،والكافرين ،والخائنين ،وغيرهم ممن تنكّب طريق الحق واختار العماية على الهداية .

(٧)سورة النساء : ٣٢ .

(٨)سورة الأنفال : ٦٦ .

(٩)سورة البقرة : ١٤٣ .

عَلِيمٌ "(١)، وعلمُ الله أزلي فقد كتب الله ما سيعمله العباد قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، يقول صلى الله عليه و سلم : "كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ –قَالَ– وَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ"(٢)، و هذا هو النوع الأول من العلم الإلهي الأزلي السابق لكل شيء ، أما النوع الثاني من العلم الإلهي هو علمه بتحقق وجود ما علمه أزلا ، أي: عِلمه بحدوث أفعالنا التي كان يعلم أنها ستكون، فالله يعلم ذنب الْمُذنِب وطاعة الْمُطِيع قبل أن يخلق الخلق، ثم إذا أذنب العبد أو أطاع علم الله تحقُّقَ الفعل و خروجه إلى حيّز الوجود ؛ فكتب له المثوبة عليه بموجب فعله للطاعة أو العقوبة عليه بموجب فعله للذنب . فهذا نوع آخر من العلم يتصف به الله العليم الذي كان، ومايزال عليما .

وهو ما يفهمه المتأمل في آيات القرآن الكريم، ففي سورة المائدة يخبر الله أنه يبتلي عباده بما حرم عليهم من الصيد ليعلم مَن يخافه بالغيب "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ "(٣) ، فهذا علم الوجود للفعل وتحققه ، وهو العلم الذي يحاسِبُ اللهُ الخلائقَ به، ولا يمنع هذا ولا يتعارض مع علم الله الْمُطلَق الذي أثبته السياق نفسه في قوله تعالى بعد ذلك : "...لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"(٤).

ومثله قول الله تعالى: "...وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"(٥)، فهو عليم بضمائرهم ، واختباره لهم ليس لزيادة علمه تبارك وتعالى، بل ليتحقق ما علمه بفعل العباد ؛ فيجازيهم بموجب هذا العلم ، أي : بموجب علمِه بما عملوه فعلا .

١٢ – النبي آدم موحد، و مشرك

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر في أن القرآن ينسب الشرك إلى الأنبياء، كما عند آدم عليه و على نبينا السلام في قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ "(٦)، واستدلوا لذلك بما أورده المفسرون من حديث سمرة المرفوع إلى النبي: "ولما ولدت حواء طاف بها إبليس –وكان لا

(١) سورة البقرة: ٢٣١ .
(٢) صحيح مسلم برقم: ٦٩١٩ .
(٣) سورة المائدة: ٩٤ .
(٤) سورة المائدة: ٩٧ .
(٥) سورة آل عمران: ١٥٤ .
(٦) سورة الأعراف: ١٨٩–١٩٠ .

يعيش لها ولد – فقال: سَمِّيه عبدالحارث فإنه يعيش ؛ فسمته عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره"(١)، قالوا: و (الحارث) اسم الشيطان حين كان في الجنة.

و الردُّ على هذه الشبهة : أن القرآن أثنى على آدم عليه السلام فقال : " إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ "(٢) ، ويؤكد هدايته واصطفاء الله له بعد توبته من الأكل من الشجرة المحرمة عليه فقال : " ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى "(٣).

وقد أطبق العلماء على ضعف حديث سمرة الذي فيه أمر الشيطان لآدم بتسمية ابنه عبد الحارث(٤)، ولو فرضنا جدلا صحة القصة التي تنسب إلى آدم ؛ فإن غاية ما تذكره القصة أن آدم وقع في شرك التسمية؛ حين سمي الولد "عبد الحارث" ، قال القرطبي في تفسيره: "قال المفسرون: كان شركًا في التسمية والصفة لا في العبادة والربوبية ... إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما عبد الحارث، لكنهما قصدا إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد، فسمياه به، كما يسمي الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له لا على أن الضيفَ ربُّه، و مصداق ذلك في قول حاتم طَيْء:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاويًا وما فيَّ إلا تيك من شيم العبد "(٥).

لكن جمهور المفسرين يرون أن قوله تعالى : "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ "(٦)مقصود به آدم وزوجُهُ، ثم انتقلت الآية التي بعدها للحديث عن ذريته وما وقعوا فيه من الشرك بالأصنام ؛ فالآية إخبار بالغيب في أحوال بني آدم ممن كفر منهم وأشرك ، ولا يصح في آدم وحواء هذا الشرك ؛ لعصمة الأنبياء وهذا هو الصحيح.

والالتفات في الخطاب من آدم إلى بنيه من غير التنبيه على فصل في الحديث معهود في القرآن ، وأمثلته كثيرة ، ومن صوره ما جاء في قصة آدم : " قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى "(٧)، فالحديث في أول الآية موضوعه آدم وحواء "قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا" ، ثم انتقل بلا فصل للحديث عن ذريته : " بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ..."

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/٣٠٩)، و السنن للترمذي برقم: ٣٠٧٧.

(٢) سورة آل عمران: ٣٣.

(٣) سورة طه: ١٢٢.

(٤) راجع: ميزان الاعتدال للذهبي (١/٥٢٧)، و السنن الكبرى للبيهقي (٥/٢٨٨)، و تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٣٦٣)، و السلسلة الضعيفة للألباني برقم (٣٤٢).

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/٣٣٩)، وانظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص (٢٥٩)، و زاد المسير لابن الجوزي (٣/٣٠٣).

(٦) سورة الأعراف: ١٨٩.

(٧) سورة طه: ١٢٣-١٢٤.

ومما يشهد لصحة هذا التأويل (الانتقال في الخطاب إلى بني آدم) ويدل عليه قوله تعالى في آخر السياق: " فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * ..."(١) وما بعدها ، فقد انتقل من الحديث عن الاثنين (آدم وحواء) إلى الحديث عن الجمع (ذريته) ، ويدل عليه أيضًا قوله: "مَا"فيبين أن المتحدث عنه مما لا يعقل أي الأصنام، ولو كان المتحدث عنه الشيطان لقال: (أيشركون مَن لا يخلق) ، ويدل على صحة هذا التأويل أيضًا أن آدم في حديث الحشر يعتذر عن الشفاعة يوم القيامة متذرّعًا بذكر ذنبه الأكبر، فيقول: "...فَيَقُولُ :رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، و لاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَنَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُه نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ..."(٢)، فلو كان آدم وقع في الشرك لذكره في هذا الموطن، فهو أعظم من الأكل من الشجرة، وهو أدعى للاعتذار عنه في موطن الخوف والإقرار والبراءة من الذنب، ومحال أن يعتذر آدم عن الصغير ويغفل الكبير، فدل ذلك كله على براءة آدم من الوقوع في الشرك.

١٣ – النبي إبراهيم موحد، و مشرك

زعم أصحاب الشبهات: إن تناقضا يظهر في أن القرآن ينسب الشرك إلى الأنبياء، كما عند إبراهيم عليه و على نبينا السلام في قوله تعالى: "فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ"(٣)، فكيف ذلك و هو أبو الأنبياء، و من خيرة الرسل؟!

و الردُّ على هذه الشبهة: أن القرآن أثني على إبراهيم عليه السلام فقال: "إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ"(٤)، كما أمر سبحانه بالتزام دينه و طريقته و نفى عنه الشرك: "قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"(٥)، و امتدح دينه بأنه ليس هناك أحسن منهكما وصفه بالخليل: "وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا"(٦)، و قوله عن الشمس والقمر: أنها ربه كان من باب تبكيت الخصم وإقامة الحجة عليهم، فتصوَّرَ بصورة الموافق ليكونَ أدعى إلى القبول، فقد يقول الْمُجادِلُ ما لا يعتقده في إقامة الحجة والبرهان على مجادلِهِ ومُناظِرِهِ كنوع من التدرُّج في إبطال مزاعم الخصم في ربوبية الأصنام بدليل قوله تعالى في السياق: "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ"(٧).

(١)سورة الأعراف: ١٩١.
(٢)صحيح البخاري برقم: ٣٣٤٠.
(٣)سورة الأنعام: ٧٧–٧٨.
(٤)سورة آل عمران: ٣٣.
(٥)سورة آل عمران: ٩٥.
(٦)سورة النساء: ١٢٥.
(٧)سورة الأنعام: ٨٢.

١٤- النبي إبراهيم مُوقِن، و شاكٌّ

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر في أن القرآن ينسب الشك إلى الأنبياء، كما عند إبراهيم عليه و على نبينا السلام في قوله تعالى : "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ . . ."(١)، فكيف و هو أبو الأنبياء و من خيرة الرسل يشك في قدرة الله على إحياء الموتى ؟!

و الردُّ على هذه الشبهة : أن إبراهيم عليه السلام آمن بقدرة الله على الإحياء ،وانعقد قلبه على ذلك بما لا مجال للشك فيه ، وسؤاله لرؤية عملية الخلق فهو فعل حسن أراد أن يترقى به في معارج الإيمان؛ بالانتقال من حال علم اليقين ، وهي حالة ذهنية متيقنة إلى حال عين اليقينأي مشاهدته ، و لتلاحظ السؤال : كيف تحيي الموتى ؟ و ليست الصيغة : هل تحيي الموتى ؟ فسؤاله طلبٌ ليقين بعد يقين ، و يتضح ذلك بجلاء في جوابه عليه السلام على سؤال : أولم تؤمن ؟ حيث قال : بلى ، أي : آمنت يارب ، و لكن ليطمئن قلبي ، و هذه الدرجة الأخرى التي أرادها و هي مشاهدة الطريقة .

١٥- النبي يونس مُوقِن، و شاكٌّ

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر في أن القرآن ينسب الشك إلى الأنبياء، كما عند يونس عليه و على نبينا السلام في قوله تعالى : "وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ . . ."(٢)، فكيف و هو من الأنبياء يظن أن الله لن يقدر عليه وهذا كفر؟!

و الردُّ على هذه الشبهة : أن الله فضل يونس مع إخوانه الأنبياء على العالمين فقال : "وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ "(٣)، وإنما القائل لهذه الشبهة لديه سوء فهم للآية، فليس مقصودُهَا أن يونس ظن أنه مُعجِزٌ الله بهربه، بل المعنى أنه ظن أن الله لن يقدر عليه، أي : لن يضيق عليه ويلومه في ترك قومه حين لم يستجيبوا لدعوته ، فهي كقول الله تعالى : "وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ "(٤)، أي : و مَن ضُيّقَ عليه في الرزق . . . ، ومثله قوله تعالى : "اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ "(٥)،أي : . . . و يُضَيّقُ الرزقَ على مَن يشاء .

---

(١)سورة البقرة : ٢٦٠ .

(٢)سورة الأنبياء : ٨٧ .

(٣)سورة الأنعام : ٨٦ .

(٤)سورة الطلاق : ٧ .

(٥)سورة الرعد : ٢٦ .

١٦ - همَّت به، وهمَّ بها

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر في أن القرآن حينينسب إلى الصِّدِّيق يوسف عليه السلام الهمَّ بالوقوع في الخطيئة مع زوجة العزيز في قوله تعالى: "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ "(١)، وقالوا: تمتلئ كتب التفسير بصور مشينة لهذا الهمّ الفاسد الذي لا يليق بنبي كريم ، فكيف ذلك ، و هو من الأنبياء ؟!

و الردُّ على هذه الشبهة : أنه لو قرأ الطاعنون في القرآن تمام الآية المستشكَلة لأدركوا منزلة يوسف الصديق وعصمة الله إياه من الذنب في قوله تعالى عنه : "... كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ "(٢)، ولئن همَّت امرأة العزيز بالفاحشة ، فإن يوسف عليه السلام لم يقع منه الهمُّ أصلا؛ بمنطوق الآية لمن فهم لغة العرب وطرائقهم في البيان، فالآية تثبت لامرأة العزيز الهمَّ " وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ "(٣)، لكنها تنفي الهمَّ بالمعصية عن الصِّدِّيق يوسف " وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ " ، و (لولا) عند العرب تفيد امتناعًا لوجود ، أي : لم يحصل الفعل لوجود ما منعه، فلم يتحقق الهمُّ بالخطيئة لأنه رأى برهان ربه بتثبيته وعصمته ، ومثل هذا المعنى في قول الله تعالى عن أم موسى : "إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا"(٤) ، فهي لم تُبْدِ لهم بحقيقة أمومتها لموسى ؛ لأن الله ربط على قلبها . كذلك لم يهمّ يوسف بالمعصية لأنه رأى برهان ربه .

و لو افترضنا جدلا وقوع الهمّ بالفاحشة من الصِّدِّيق يوسف؛ فإن الهمَّ في لغة العرب حديث النفس بمواقعة أمر ، فإن كان الهمُّ في أمر حسن فهو حسن ، وإن كان في أمر سوء لم يكن سوءا إلا بترقِّي الهمّ إلى العزم أو الفعل(٥) ، وإلا كان تركه لله سببا في اكتساب الحسنات والمنزلة عند الله ، يقول النبي صلى الله عليه و سلم فيما يرويه عن ربه : "يَقُولُ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلاَ تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِئَةٍ"(٦)، فلو وقع همٌّ بالسوء من يوسف فهو له حسنة، لأنه لم يترقَّ إلى فعل إذ تركه لله وخوفًا منه "وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة" هذا بفرض أنه قد همَّ .

و يرى ابن تيمية أن هذه القصص المكذوبة المروية في كتب المسلمين و بعض المفسرين من مرويات وقصص أهل الكتاب ، وما ينقل من أنه حلّ سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة ، وأنه رأى صورة يعقوب عاضًّا على يده ... وأمثال ذلك، فهو مما لم يخبر اللهُ

---

(١) سورة يوسف : ٢٤ .

(٢) سورة يوسف : ٢٤ .

(٣) يحسن بالقارئ الوقوف عند هذا الموضع من الآية ثم يستأنف بعد ذلك بقية الآية مما يوضح المعنى المقصود .

(٤) سورة القصص : ١٠ .

(٥) الفعل على ست مراتب : (الخاطر ، ثم الهاجس ، ثم حديث النفس ، ثم الهم ، ثم العزم ، ثم الفعل) ، فأما الخاطر والهاجس وحديث النفس فلا يكتبون على العبد لا في الخير ولا في الشر ، كما قال صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ ، أَوْحَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَالَمْ تَعْمَلْ بِهِ ، أَوْتَكَلَّمْ" (أخرجه البخاري برقم : ٦٦٤) ، وأما الهمُّ فلا يكتب في الشر بمجرد الهمّ ، و يكتب خيرًا إن همَّ العبد بأمر الخير أو ترك همَّ السوء ، وأما العزم فيكتب بالخير والشر ؛ ولو لم يقع الفعل لعزم القلب عليه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ . فَقُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَابَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ : إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ" . (أخرجه البخاري برقم : ٣١) .

(٦) صحيح البخاري برقم : ٧٥٠١ .

به ولا رسولُه، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبًا على الأنبياء وقَدْحًا فيهم، وكل مَن نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا حرفًا واحدًا"(١).

١٧- الإفراد توحيدا، و الجمع إشراكا

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر في أن القرآن يتوافق مع عقيدة التثليث نظرا لما يوجد بالقرآن من موافقة إسناد ضمير الجمع إلى الله في القرآن كقوله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "(٢)، و كقوله : " إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ"(٣)، و هذا يناقض وحدانية الإله في قوله تعالى : "وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لا إِلَٰهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ"(٤).

و الردُّ على هذه الشبهة : في قول الله تعالى: " لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "(٥) ، ما يتعلق بإسناد ضمائر الجمع التي تكلم الله بها عن نفسه في القرآن مثل: إنا، ونحن، و "نا" الدالة على الفاعلين، وضمائر المتكلمين المستترة وجوبًا... إلخ، تدل بداهة عند العربيّ على خروجها عن ظاهرها إلى ما يخالف الظاهر ، و هذا متداوَل معروف في اللغة العربية وأكثر من يخاطَب بهذا الملوك و أصحاب الرئاسة ،أوَمَا سمعت رئيسًا أو ملكًا يقول: قررنا نحن....، أو نحن فعلنا...؟

و لا نذهب بعيدًا ، فارجع لكثير من الكتب تجد مُصَنِّفَ الكتاب يتكلم عن نفسه بصيغة الجمع فيقول مثلا : " و قد أوردنا...، أو ذكرنا... إلخ"، فخوطب العرب بمثل ألفاظهم و أساليبهم، و العارف بلغة العرب لا يتوقف عند مثل هذه الشبهة.

أضف إلى ذلك أن هذه الطريقة لا تدلُّ على التعدُّد ، بل على وحدانية الله –سبحانه وتعالى– وأنه لا شريك له ؛ إذ التعظيم في الخطاب عن ذاته العلية يعطي إحساسا آخر و رونقا مختلفا ؛ فبالعظمة يتضح بجلاء الوحدانية و انتفاء الشريك حيث لا وجود لِمُنازِعٍ له في أعماله التي يعملها ، و أقواله التي يتكلم بها عن ذاته العلية.

١٨- النصارى مؤمنون في الجنة، و كافرون في النار

زعم أصحاب الشبهات : إن تناقضا يظهر في القرآن حين امتدح النصارى بالإيمان ، وذكر بأنهم في الجنة في قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ

(١) راجع مجموع الفتاوى لابن تيمية (ج١٠/ص٢٩٧).

(٢) سورة الحجر : ٩.

(٣) سورة مريم : ٤٠.

(٤) سورة البقرة : ١٦٣.

(٥) سورة المائدة : ٧٣.

هُمْ يَحْزَنُونَ "(١)، في حين أنه قال بكفرهم في موضع آخر : " لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ *لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"(٢).

و الردُّ على هذه الشبهة : أن القرآن كما كان واضحا في بيان وحدانية الله وعبودية المسيح وبشريته ؛ كان صريحًا في إضلال القائلين بألوهيته وربوبيته وتكفيرهم ، وهذا منثور في مواضع كثيرة من القرآن منها الآيتان المذكورتان من سورة المائدة ، فهما– وغيرهما كثير– واضحتان في بيان كفر القائلين بعقيدة التثليث ، وألوهية المسيح .

لكن هذا الحكم القرآني لا يسري على المسيح الذي تبرأ من هذه المعتقدات كما لم يأمر بها : "...وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ "(٣) ، كذلك لا يسري الحكم بالكفر والنار على أتباعه المخلصين المؤمنين الذين آمنوا بالله وحده، وشهدوا للمسيح بالرسالة فحسب، واتبعوه ونصروه يقول الله تعالى: "وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ"(٤)، هذه الثُّلَّة المؤمنة مَمْدوحَة في القرآن ولا ريب ؛ فهؤلاء من خيرة الله في خلقه، وقد وصفهم الله بقوله: "أنصار الله"(٥)، ومِدْحَةُ الله لهم في القرآن تسري على كل مؤمن مشى على نهجهم إلى يوم الدين(٦) فهم مؤمنون بالمسيح الرسولبريئون من معتقدات النصارى التي استقاها المسيحيون من أقوال بولس ومن المجامع الكنسيَّةِ من بعده ، و لهذا لا بد لِمَن سار على نهجهم في العصور التالية لبعثة النبي مُحَمَّدﷺأن يصدق به فهو البشارة التي بشَّرَ بها المسيحُ عليه السلام .

١٩– أقسم، و لا أقسم

زعم أصحاب الشبهات : إن القرآن تناقض في مسألة قسم الله بمكة ؛ فهو أقسم بها في قوله: "وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ"(٧)، في حين أنه ينكر هذا القسم بمكة في موضع آخر فيقول: "لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ"(٨).

و الردُّ على هذه الشبهة: أن الله قد أقسم بالبلد الأمين (مكة) كما في آية سورة التين المذكورة، وما فهمه المعترضون من آية سورة البلد خطأ قادهم إليه جهلهم بلغة العرب وطرائقها في البيان، ففي قوله: "لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ" (لا) ليست النافية التي تعني نفي القسم، بل

(١)سورة البقرة: ٦٢.

(٢)سورة المائدة: ٧٢–٧٣.

(٣)سورة المائدة: ٧٢.

(٤)سورة المائدة: ١١١.

(٥)سورة الصف: ١٤.

(٦)يمتلئ تاريخ المسيحية بما تسميه الكنيسة اليوم بفرق الهراطقة مثل: (الأريوسية، والنسطورية، والأبيونية)، وهي فرق تنكر ألوهية المسيح وتندد بالتثليث، وكانت تمثل السواد الأعظم من النصارى حتى القرن الرابع الميلادي.

(٧)سورة التين: ٣.

(٨)سورة البلد: ١.

هي (لا) الزائدة، و التي يسميها بعض النحويين تأدُّبًا (لا) الصلة و هي زائدة نحويًّا ، وإن كانت غير زائدة بلاغيًّا ، لأنها تفيد التأكيد من الناحية البلاغية .

والعرب ما زالت تستخدمها في كلامها من القديم، فهي كقولنا : لا أوصيك بفلان، أي: لا أحتاج إلى توصيتك به، فهي نوع من التأكيد على التوصية، وليست طلبا للإهمال أو امتناعا عن التوصية به .

وهذا الأسلوب في القسم يفيد تعظيم المقسم به ، كما في آية سورة البلد، وكما في قوله تعالى : "فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ"(١)، وكقوله : "لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ"(٢).

و لقد وردت (لا) الصلة في مواضع كثيرة في القرآن الذي نزل بلغة العرب، ومنه قول الحق : "...مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلا تَتَّبِعَنِ ..."(٣)، أي: أنْ تتبعن، و كقوله: "فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ"(٤)، أي: فوربك لا يؤمنون حتى ... ، كما ورد في سياق قصة آدم إثبات (لا) الصلة في موضع وحذفها في موضع آخر ، لجواز الوجهين وتكامل معنييهما، فأما إثباتها ففي قوله تعالى : " مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ "(٥)، وقد حذفت في قوله: " مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ "(٦) ، والمعنى فيهما واحد ، وهو : ما الذي منعك أن تسجد لآدم حين أمَرْتُك ؟

٢٠ – لا ينطقون، و ينطقون

زعم أصحاب الشبهات : إن القرآن تناقض وهو يقصُّ أحوال الناس في يوم القيامة، فتارة يقول: إنهم لا ينطقون: "هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ "(٧)، في حين أنه يذكر في موضع آخر أنهم ينطقون ويعتذرون: " ...وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ"(٨)، وأنهم يقولون: "...مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ..."(٩).

و الردُّ على هذه الشبهة : أن يوم القيامة يوم طويل : "...كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ..."(١٠)، وفيه مواقف متباينة لكل منها ما يخصه من الأحكام والأحوال، ففيه حذر وترقب وفرج وبشارة، وفيه حزن وهلاك وأمن وأمان، والناس يتنقلون بين هذه

---

(١)سورة الواقعة : ٧٥-٧٧.

(٢)سورة القيامة : ١-٢.

(٣)سورة طه : ٩٢-٩٣.

(٤)سورة النساء : ٦٥.

(٥)سورة الأعراف : ١٢.

(٦)سورة ص : ٧٥.

(٧)سورة التين : ٣.

(٨)سورة الأنعام: ٢٣.

(٩)سورة النحل : ٢٨.

(١٠)سورة المعارج : ٤.

المواقف بل ربما تنقل المرء فيه من حال إلى حال ، ففي حديث عائشة –رضي الله عنها– أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله– صلى الله عليه و سلم–: مَايُبْكِيكِ ؟ قَالَتْ : ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– : « أَمَّا فِى ثَلاَثَةِ مَوَاطِنَ فَلاَ يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا : عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ (هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ أَفِى يَمِينِهِ أَمْ فِى شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَىْ جَهَنَّمَ"(١)، فهذا لا يتعارض مع قوله تعالى : "لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ "(٢)، فهذا الذهول لا يستغرق يوم القيامة بل هو متعلق ببعض مواقفه، وهو لكل شخص بحسب عمله وتقواهلوجود أوقات يأمن فيها المرء على نفسه ؛ حين يعلم صلاح مآله ونجاته من النار ، كما قال صلى الله عليه و سلم : " أما في ثلاثة مواطن فلا يذكرُ أحدٌ أحدًا " ، مما يعني أن في غيرها من المواطن يتذكرُ المرءُ أحبابَهُ و خِلانه؛ لأَمْنِهِ فيها من العذاب.

مما ذكر البغوي في تفسيره : "قال سعيد بن جبير : قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : إِنِّي أَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ، قَالَ: هَاتِ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْكَ، قَالَ: "فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ" (الْمُؤْمِنُونَ –١٠١) ، "وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ"(الطُّورِ –٢٥)وَقَالَ: "وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا"، وَقَالَ "وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ" (الْأَنْعَامِ–٢٣)فَقَدْ كَتَمُوا، وَقَالَ: "أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا"، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: "وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا"، فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: "أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ"، إِلَى قَوْلِهِ: "طَائِعِينَ" (فُصِّلَتْ ٩–١١) فَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ السَّمَاءِ، وَقَالَ: "وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" "وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى؟.

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ فِي النَّفْخَةِ الْأُولَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ" (الزُّمَرِ –٦٨) ، فَلَا أَنْسَابَ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ، ثُمَّ فِي النَّفْخَةِ الْآخِرَةِ : "أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ" ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: " مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ" ، " وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا" ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ، فَيَقُولُ الْمُشْرِكُونَ: تَعَالَوْا نَقُلْ لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ، فَيُخْتَمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ عُرِفَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَكْتُمُ حَدِيثًا، وَعِنْدَهُ " يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ" ، و "خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ" ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ، وَدَحْيُهَا: أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالْآكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فَقَالَ: : خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ فَجُعِلَتِ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، وَخُلِقَتِ السَّمَوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ، "وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" أَيْ: لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، فَلَا يَخْتَلِفُ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ "(٣).

---

(١) السنن لأبي داوود برقم: ٤٧٥٧.

(٢) سورة عبس: ٣٧.

(٣) انظر معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي (٢/ ٢١٨).

٢١- لا يتساءلون، و يتساءلون

زعم أصحاب الشبهات : إن القرآن تناقض وهو يقصُّ أحوال الناس في يوم القيامة، فتارة يخبر القرآن عن أهل النار أنهم يوم القيامة يتساءلون في قوله تعالى : "وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ "(١)، بينما يخبر في موضع آخر أنهم لا يتساءلون في قوله تعالى : "فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ "(٢).

و الردُّ على هذه الشبهة : أن العلماء ذكروا للرد وجهَيْن صحيحين:

الأول: وهو ما ذكرناه في الشبهة السابقة ، مما مفهومه أنهم عند النفخة وقيام الأشهاد واضطراب الخلائق لا يتساءلون لِهَوْل الْمَشهَد : "فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ "(٣)،فهذا الوقت عصيب وهو وقت فزع وخوف : " وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاء الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ "(٤)، و مثله في قوله تعالى : "يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ *يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ "(٥)، ثم يفيق العباد من هول المطلع ، فيكون بعد ذلك التلاوُمُ والتساؤُلُ .

الثاني: أن القرآن نزل بلسان العرب موافِقًا لما عهدوه في أساليبهم وطرائقهم في البيان، والعرب تعتبر الفعل الذي لا فائدة منه كالعدم ؛ ولأجل هذا سمى القرآن المنافقين: " صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ "(٦)،بينما في الحقيقة هم يسمعون وينطقون ويبصرون : " وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون "(٧)، لكنهم صم عن سماع الحق، وعمي عن رؤيته ، وبكم عن النطق به : " لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ "(٨) ، وبمثل هذا نقول: إن النظر مع عدم الإفادة منه هو كعدم النظر حكما ؛فصاحبه أعمى وإن كان يرى ما يراه ذو العينين ، ولمثل هذا قال الله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "(٩)، فليس المقصود منه نفي نظر الله إليهم ؛ فالله لا يغيب عنه أحد، وليس المقصود أنه تبارك وتعالى لن يكلمهم ، فكلامه لهم ثابت في عشرات الآيات التي تحكي عن توبيخ الله للمشركين وتقريعه لهم، لكن المقصود أنه لا يكلمهم كلاما ينفعهم، أو لا يكلمهم بما فيه رحمةٌ لهم، ولا ينظر إليهم نظرة تفيدُهم وتنجيهم من عذابهم وخوفهم، فلما لم يكن لها فائدة كانت بمنزلة العدم.

---

(١)سورة الصافات : ٢٧ .

(٢)سورة المؤمنون : ١٠١ .

(٣)سورة المؤمنون : ١٠١ .

(٤)سورة النمل : ٨٧ .

(٥)سورة الحج : ١-٢ .

(٦)سورة البقرة : ١٨ .

(٧)سورة الأحقاف : ٢٩ .

(٨)سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٩)سورة آل عمران : ٧٧ .

ومثل ذلك قول الله تعالى عن الكافر : " فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى "(١) ، أي: لا يحيا فيها حياة طيبة هانئة، وإلا فهو – على الحقيقة – حيٌّ في جهنم لا يموت أبدًا ، ومثله كذلك قول النبي ﷺ لِمَن صلى على الحقيقة غير أنه أساء في صلاته: " ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ "(٢)، فصلاته في حكم العدم؛ لعدم إقامته ركوعها وسجودها.

ومن ذلك قوله تعالى وهو يصف حال الناس في كربات يوم القيامة: "فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ "(٣)، فليس معناه أنهم تنقطع الأنساب بينهم فلا يكون الابنُ ابنًا لأبيه؛ فإن القرآن أثبت النسب بين الناس في يوم القيامة ونفى الانتفاع به: "يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ*وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ*وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ*لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ"(٤)، فلما كان النسب لا ينفع يومئذ قال الله: "فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ"، أي: لا ينفعهم النسبُ حينذاك، كما لا ينفعهم التساؤل(٥).

٢٢- لا يُسألون، و يُسألون

زعم أصحاب الشبهات : إن القرآن تناقض في مسألة السؤال عن ذنوب المجرمين ، فنفاه في قوله: " وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ "(٦)، وقوله: " فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ "(٧)، بينما أثبته في مواضع أخرى فذكر أنه يسألهم في قوله : "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ "(٨)، فهذه الآية تدل على سؤال الجميع يوم القيامة، ومثلها قوله تعالى: " فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ*عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ"(٩).

و الردُّ على هذه الشبهة: أن العلماء قالوا:

السؤال يكون بعضُهُ للاستفسار والتعلم، وبعضه للتقريع والتوبيخ، وبينهما بَوْن شاسع، فالأول منتفٍ في حق الله تعالى علام الغيوب فهو لن يسأل أحدًا عن ذنبه سؤال تعرُّف واستخبار، بل يعاقب الله تعالى العبد بما عرف من ذنوبه ومعاصيه: "يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ "(١٠)، فالله لا يسأل المجرمين ولا يستفسر منهم عن ذنوبهم

---

(١)سورة طه: ٧٤.
(٢)صحيح البخاري برقم: ٧٥٧، و السنن لأبي داوود برقم: ٨٥٦.
(٣)سورة المؤمنون: ١٠١.
(٤)سورة عبس: ٣٤-٣٧.
(٥)انظر: نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلاني، ص: ٢٠١.
(٦)سورة القصص: ٧٨.
(٧)سورة الرحمن: ٣٩.
(٨)سورة الأعراف: ٦.
(٩)سورة الحجر: ٩٢-٩٣.
(١٠)سورة المجادلة: ٦.

حين يريد عقوبتهم ، وكذلك فإن الملائكة حين تنزل بالعذاب فإنها لا تسأل المجرمين ، ولا تسأل عنهم لأنها تعرفهم بسيماهم : "فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ "(١).

وأما سؤال الحساب والتوبيخ والتقريع فهذا نوع آخر من السؤال يسأله الله تبارك وتعالى للمجرمين، بل ويسأل الأنبياء ليقرع المجرمين، ويقيم عليهم الشهود كما في الآية الكريمة : "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ "(٢).

٢٣ - عربيٌّ، و أعجميٌّ

زعم أصحاب الشبهات : إن القرآن تناقض في قوله بأنه نزل : "...بِلِسَانٍ عَرَبِيٍ مُبِيْنٍ "(٣)، في حين أننا نجد فيه كلمات أعجمية كأسماء بعض الأعلام (إبراهيم ، إسماعيل، إسحاق)، أو أسماء بعض الأشياء مستعارة من لغات أخرى كالسريانية والعبرية والنبطية، وأوصلوها إلى ما يقرب من أربعين كلمة، منها : (القرآن – سكين – زكاة – سرادق – الحور – مشكاة – إستبرق – السبت – زنجبيل – سجيل).

و الردُّ على هذه الشبهة: أن العلماء قالوا :

نزل القرآن بلسان عربي مبين، لذا لا يوجد في سطر من سطوره جملة واحدة غير عربية ، ولا يوجد جملة واحدة مركبة بما يخالف أساليب العرب وطرائقها في البيان.

إن وجود كلمات فرنسية متفرقة في كتاب مكتوب بالإنجليزية، لن تجعل الكتاب فرنسيًّا، ولن تشكك في إنجليزية الكتاب ولا الكاتب، وبخاصة حين تكون هذه الكلمات أسماء لأعاجم، فهذه الكلمات تنقل كما هي من لغة إلى أخرى من غير ترجمة معانيها.

ثم إن كثيرًا من هذه الكلمات – التي استعجموها – عربية في جذورها واشتقاقاتها، وجهل البعض بها لقلة استخدامها، ومن ذلك كلمة (قرآن – سكين – حور)، فكلمة (قرآن) ليست من الكلمة العبرية (קָרָא) كرا، ولا من السريانية (قرا)، بل هي من الجذر العربي (قرأ)، وهذا التشابه في جذور كلمات اللغات السامية كبير ومعروف عند علماء اللغات، وصُوَرُهُ أكثر من أن تحصى في اللغات السامية، وبسببه أخطأ البعض في نسبة بعض الكلمات العربية الأصيلة إلى لغات أخرى (٤).

---

(١) سورة الرحمن : ٣٩ - ٤١ .

(٢) سورة الأعراف : ٦ .

(٣) سورة القصص : ٧٨ .

(٤) القرآن ولغة السريان لأحمد محمد علي الجمل، (كتاب إلكتروني)، وقد بين الدكتور أمثلة لهذا المتشابه، ومنه لفظة (الحور)، فتدور معانيها في العربية والعبرية والسريانية على : البياض والصفاء ، لكنها كلمة عربية أصيلة استخدمها العرب، ووردت في أشعارهم ، ومن ذلك قول عمرو بن قُميئة :

لَها عَينُ حَوراءَ فِي رَوضَةٍ وَتَقرو مَعَ النَبتِ أَرطى طِوالا

وقول خليفة بن بشير :

حتى أضاءَ سِراجٌ دونه حَجَلٌ حُورُ العيونِ مِلاحٌ طرفُها ساجي

فمثلا كلمة (قرآن) مصدر آخر من الفعل (قرأ)، وهو يختلف في معناه عن المصدر (قراءة)، كما يفترق "رحمن" عن "رحيم"، و "فرقان" عن "فرْق"، و "رضوان" عن "رضا"، و "حيوان" عن "حياة"، و "حيران" عن "حائر"، فالمصدر (فعلان) يفيد معنى زائدا، فالقراءة في أي كتاب هي صورة للقراءة، أما القرآن فهو حقيقة القراءة، وكذلك (الحياة) تدل على أي صورة من صور الحياة، بينما (الحيوان) تدل على الحياة الحقيقية، لذلك قال الله عن الآخرة: "... وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ "(١)، وكذلك الفرق بين الرضا والرضوان، وبين الفرق والفرقان.

لقد استخدم العربُ كلمات وفدت إلى العربية من لغات أخرى، وهي في غالبها تتعلق بمسميات وافدة على العرب، فاستوردها العرب في رحلاتهم إلى الشام وفارس مع أسمائها مثل: (سندس، إستبرق، زنجبيل)، فأصبحت عربية بالتعريب واستخدام العرب لها، ويشبه هذا استخدامنا اليوم لبعض الكلمات المتعلقة بمصنوعات وفدت إلينا من الغرب، مثل: (التلفزيون، الفيديو، الراديو)، واستعمال العرب ثم القرآن لأمثال هذه الكلمات لن يقلل من عروبة القرآن، فعروبة أساليبه وفصاحة كلماته لم ينكرهما حتى عرب الجاهلية، وهم مَن هم في الفصاحة والجزالة، وكذلك في الحرص على الوقوف على زلل في القرآن أو خطأ.

إن الهجوم على القرآن يهدف إلى تشكيك المسلم بالقرآن العظيم، وإبعاده عن هديه و تأثيره الذي جعل من المسلم مِشعَل هداية ونبراس حق ودليل إيمان وقوة لا تقهر، و هذه الأباطيل تكشف عن جهل قائليها بلغة العرب ومعاني النصوص القرآنية، ولعلها تكشف أيضًا عن تدليس وتلبيس و خداع، و لعل جهل المسلمين بلغة العرب اليوم، وجهلهم بعلوم القرآن وتفسيره سبب رئيس لتحول هذه الأباطيل إلى شبهات تشتبه على عوام المسلمين، فالواجب على المسلم أن يتحصن من هذه الشبهات بمعرفة دينه و لغته، والإلمام بعلوم اللغة و الدين إذا لم يقدر على التمكن منها.

إن التجريف التعليمي الذي تعرَّضنا له على أيدي المستعمرين و أذيالهم مِمَّن استلموا الراية – من أبناء جلدتنا – تابعين لهم، يتضح لنا خطره من خلال ما استعرضناه و إن كان فَيضًا من غَيض، لكنه إشارات و علامات عسى أن ننتفع و نحذر، و نحاول إصلاح هذا التجريف الذي تمَّ في مناهجنا التعليمية من إضعاف مقصود للغتنا التي لا تضاهيها و لا تصل إليها لغة مما يبعدنا عن الفهم الصحيح لديننا، و بالتالي يضعف معه مستوانا و قدراتنا و قوتنا، و من إضعاف مقصود لمحتوى التعليم الديني كما و كيفا قصدا لطمس هويتنا، إن هذا لمما يحتاج إلى جراحة عاجلة تنقذ جسد الأمة الجريح من نزفه المستمر، و تعيد إليه دماءه التي فقدها فإن تمَّ للأمة ذلك عادت إليها قوتها و مكانتها التي فقدتها لفترة ليست بالهينة.

اللهم ردنا لدينك ردا جميلا، و أصلح البلاد و العباد.

---

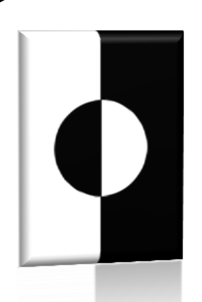
(١) سورة العنكبوت: ٦٤.

******- هل تتناقض أيها المسلم؟

أيها المسلم

أنت مسلم لله . فهل يعني ذلك أنك لا تجمع تناقضا في الصفات و المعاملات ؟

أبدًا لا بدَّ من أن تجمع بعض التناقض في ذاتك و معاملاتك ، فلا غنى لنا عن المتضادات و التناقضات في حياتنا ، إنها حياة لا بد فيها من الجمع بين المتناقضات و المتضادات حسب الوضع و الحالة فلكل مقام مقال ، لكن المشكلة هي التعميم في الحكم بالسوء على التناقض و التضاد ، فعلينا أن ندرك أن هناك أنواعا من التناقض غير مقبولة نهانا الشرع عن إتيانها، في حين أن هناك أنواعا أخرى مقبولة حثنا الشرع على فعلها و شجعنا عليها ، و الشرع هو المعيار الأمثل و الأرجح لمعرفة ما إذا كان هذا النوع أو ذاك مُستحسَنًا لنأتيَهُ أو مُستقبَحًا لئلا نفعلَهُ .



أرى حُللا تُصانُ على أناسٍ   وأخــلاقا تُداسُ فمــا تُـصانُ

يقولون : الزمانُ به فسادٌ   وهُم فسدوا وما فَسُدَ الزمانُ

إن مرضاة الله و الجنة هدف أسمى يطمح إليه كل مَن أسلمَ نفسه لخالقه، و حالُ بعض المسلمين اليوم ينبيكعن تناقض مذموم في حياته بصورةٍ ما من الصور غير المقبولة شرعا ، على نحو ما سنبين بعضه بالسطور التالية .

تناقض المعاملة حسب الشخوص

و أعني به : مَن يقع التناقض عنده من طريق آخر ، فهو في معاملاته خارج حدود بيته يُثْنَى عليه بها خيرا ، بل يصفه الواصفون بأنه من أعذب الناس منطقا وأكملهم خلقا وألطفهم معاملة وأكرمهم يدا ، فإذا رجع إلى بيته فإذا برجل غير الرجل ، إذا تكلم سبَّ و شتم ، وإذا بأتفه الأسباب تثير غضبه الأشمّ ، يهمز ويلمز و يطلب فيُعجِز ، معاملته جافة جافية ويده شحيحة معادية ، وكأنه رجل آخر غير الذي كان في الخارج ، ثم هو بعد كل هذا يسأل زوجته عن أبنائه : لماذا لا يرغبون في الجلوس معي ؟ لماذا لا يستشيرونني ؟! والجواب يا هذا : أنك أنت السبب فكيف يجلسون معك وهم لا يسمعون منك إلا كلمات الشتم أو التأنيب و الأسلوب الجارح ؟! إذا تكلموا لم تسمع كلامهم إذا طلبوا شيئا يسيرا لم تأبه لهم ، إذا فعلوا لم تقدر فعلهم ، فاعلم أن المسلم الحق هو الذي يتكامل في عباداته وأخلاقه مع كل الأشخاص ، وأهل بيته أولى بالمعاملة الحسنة والخلق الرفيع .
ولنا في رسولنا القدوة الحسنة في تعامله مع أهله وزوجاته في حسن المعاملة و الترفق و اللطف ، قال صلى الله عليه و سلم : " خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَ أَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي "(١).

---

(١) السنن لابن ماجة برقم : ١٩٧٧ .

تناقض العبادة، و المعاملة

و أعني به : مَن يصلي ويصوم ويزكي و يحج ليتقرب إلى الله مبتغيا رضاه و الجنة لكنه يقع في طوامَّ تصل به إلى حد الإفلاس ، لا نعني إفلاس الدرهم والدينار ، و اسمعوا لما رواه أبوهريرة أنّ رَسُولَ اللهِ —صلى الله عليه وسلم– قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ . فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا ؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"(١).

فها هو يخبرنا الصادق الأمين أن للصلاة مكانتها وللزكاة مكانتها وللصوم مكانته ، وهذه من أركان الإسلام ومبانيه العظام ، لكنه أكد على حقيقة مهمة قد تغيب عن كثيرينفتؤدي بهم إلى التناقض ، الحقيقة هي أن الأخلاق والتعاملات مع الآخرين داخلة في العبادات التي تؤجر بسببها أو تعاقب بسببها ، فعلى المسلم أن يكون دائما ذا عبادة وخلق ، مقيما لعباداته حافظا للسانه وجَنَانه ، و ألا يقع في التناقض الذي يصل به إلى الهلكة ؛ لأن عبادات يؤجر بها تطيش بسبب معاملات أساء فيها فاستوجب العقاب عليها ، و العُمْلَةُ يوم القيامة ليست الدرهم و الدينار بل الحسنة و السيئة ، وإذا تلاشت يومها حسناتُك و زادت سيئاتُك فقد أفلَسْت ، فانظر أيَّ مصير تجهز لنفسك بنفسك ؟!

تناقض الْعَلَن ، و الْخَفَاء

و أعني به : مَن يعمل الكثير من الصالحات ، ويحصد الوفير من الحسنات أمام الناس ، فهو يقوم من الليل كالمتهجِّدين ، لكن سر تناقضه نسمعهمن رسولنا صلى الله عليه وسلم : "لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا"(٢)، و يقال :(إن ذنوب الخلوات هي أصل الانتكاسات ، وعبادات الخفاء هي أعظم أسباب الثبات) .

نحن نتكلم عن التناقض بين عمل العلانية والخفاء ، بين الجلوة والخلوة ، و هو دليل على ضعف الإيمان ، وضعف المراقبة لله سبحانه ، و هو مطلع علينا : "أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى"(٣).

يا لابسينَ حِلى التقوى وشارتَها — الدينُ بالصِّدقِ ليس الدين بالكَلِمِ
صلُّوا بباطنكُم من قبل ظاهركُم — إن الدِّيانةِ في الأخلاقِ والشِّيَمِ

(١) صحيح مسلم برقم : ٦٧٤٤ .
(٢) السنن لابن ماجة برقم : ٤٢٤٥ .
(٣) سورة العلق : ١٤ .

تناقض الْقَول ، و الْفِعل

و أعني به : الرجل الناطق بالخير الحكيم في قوله الداعي إلى الفضيلة في حين أنه لا ينفذ شيئا مما يقوله ، و لا يعمل بأقواله مع نفسه ، و هو مما ذمَّه الشرع من التناقضات ، قال تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ"(١) ، كأن يقول للناس ألا يكذبوا و هو أسرعهم للكذب ، أو يدَّعي فعل شيء ، و هو لم يفعله . فهنا نجد انفصالا بين الفعل و القول عنده ، و هو تناقض قبيح نربأ بأنفسنا عن الوقوع فيه .

ولا تَكُ كالناهي عن الذنب غيرَهُ وفي كَفِّهِ مِمَّا يُذَمُّ نصيبُ

يعيب فعالَ السُّوء من فعلِ غيرِهِ ويفعل أفعالَ الذين يعيبُ

تناقض الْوَجْه ، و الوجه الآخر

و أعني به : الرجل ذا الوجهين ، الذي يأتي كل قوم بوجه ، فهو من شرار الناس كما أخبر بذلك المصطفى ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ"(٢) .

قال الإمام ابن حجر رحمه الله : "شر الناس لأن حاله حال المنافق إذ هو متملق بالباطل وبالكذب ، مدخل للفساد بين الناس" .
وقال الإمام النووي رحمه الله : "هو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها فيظهر لها أنه منها ومخالف لضدها ، وصنيعه نفاق ومحض كذب وخداع ، وتحيُّلٌ على الاطلاع على أسرار الطائفتين ، وهي مداهنة محرَّمة) .

فلا تتناقض أيها المسلم بأي صورة من هذه الصور التي نهانا عنها الشرع حتى تنجو من الهلكة .

وكم من صـــديقٍ وُدُّه بلســانه خؤون بظهر الغيب لا يتـذمَّمُ !

كذلك ذو الوجهين يرضيكَ شاهدا وتَـتبَعُني منه إذا غبـتُ أسهمُ

تناقض التطبيق ، و عدم التطبيق

إن القوانين الْمُثْلَى و الأحكام التي لا يتطرق إليها خلل لا تكون إلا من خلال وحي إلهي ، و عن طريق نبي الله أو رسوله ؛ لأن الذي خلق هذا الكون و هذا الإنسان أدرى بما يَصلُحُ له من قيم و مبادئ ، و أعلم بما يُصْلِحُهُ من أحكام و حدود ، قال تعالى : "أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ

---

(١) سورة الصف : ٢ - ٣ .
(٢) صحيح البخاري برقم : ٦٠٥٨ .

هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ"(١) ، أما القوانين الوضعية التي يتفق عليها البشر مهما كانت قدراتهم و المعلومات لديهم فإنها ذات خلل و عيوب ، و على قدر علم و طاقة واضعيها على قدر ما يخفى من عيوبها ، إلا أن المحققين و المدققين من أهل العلم و العقل الراجح يتبينون هذا الخلل و تلك العيوب ، فيَنْفُذ البعض منها كي يُخرجَ صاحب مشكلة من الحكم الْمُفترَض أن يكون عليه ، هذا إذا تم تطبيق القانون ، فما بالك إذا كان هناك محاباة و جَوْر في تطبيق القانون على فئة دون أخرى ؟!

تناقضية الْمَعَايير أو كما يحلو للبعض تسميتها (الكيل بمكيالين) يمكن وصفه بأنه نوع من التحيُّز و الظلم ؛ فالكيل بمكيالين يشير إلى أي مجموعة من المبادئ التي تتضمن أحكاما يُنظَرُ إليها على أنها مقبولة لاستخدامها من قِبَلِ مجموعة من الناس ، لكنها تُعتبَرُ غير مقبولة ومن المحرمات عندما تُستخدَمُ من قِبَلِ مجموعة أخرى على أساس الطبقة الاجتماعية أو العرق أو الجنس أو الدين أو الجنسية أو أي شكل من أشكال التمييز ، في حين أن العدل يستلزم أن يقف جميع الأطراف على قدم المساواة أمام القانون ، و أن يكون الْحَكَم أو القاضي على الحياد بالنسبة للطرفين ، و أن يطبِّقَ نفس المعايير على جميع الناس مهما كانوا ، و مهما كانت قراباتهم و مصالحهم ، و تمتلئ ساحات القضاء بالأمثلة على تعمية العدالة و شهادة الزور و الأحكام المخالفة للحق ، و أدراج النيابات و المحاكم مكدَّسة بما تم إغلاقه و التحفظ عليه بسبب المكانة أو الأوامر العليا أو المحاباة بعيدا عن أعين العدالة .

لو راقبْنا تصرفاتِنا الشخصية في إطار القوانين التي يُفتَرَضُ التزامُنا بها لوجدنا تناقضا نحن أبطالُهُ !

مِنَّا مَن يكسر القانون حينما لا يراه أحد في حين أنه أمام الآخرين ملتزم ، و إذا كسر القانونَ قريبٌ أو ذو مكانة تغاضى ، و تلمَّسَ له الأعذار ، بينما ينتفض و يتمعَّر إن كان الكاسر للقانون غريبا أو رقيق الحال ، و منا مَن يطبق القانون في كل وقت و على أي شخص ، و لو لم يره أحد – على قِلَّتِهم بيننا – و لنا في النبي الخاتم خير أسوة حين حاول بعض الصحابة إبعاد امرأة سرقت من أن يتم تنفيذ حكم الله فيها لمكانتها في قومها فلم يجرؤوا على ذلك فأوفدوا عنهم حِبَّ رسول الله ﷺ (أسامة بن زيد) ليكلمه في هذا الأمر ، " فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ ؟! ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"(٢).

ليست المعاناة قاصرة على المستوى الفردي فحسب بل على المستوى الدولي أيضا ، فالدولة القوية تهرع لنصرة المظلوم حينما يتطابق هذا الفعل مع مصلحتها الخاصة، وتحجم عن ذلك أو حتى تقف مع الظالم عندما يكون الوقوف مع المظلوم متعارضا مع مصلحتها الخاصة أو متقاطعا مع توجهاتها العامة ، كما يظهر ذلك بجلاء للمُتابع فيما حولنا من مواقف الدول الأجنبية ، و بالنظر لمجموعة الدول المسماة بالدول العظمى و ما تقوم به في العالم خاصة تجاه الدول الإسلامية .

(١) سورة الملك : ١٤ .

(٢) صحيح البخاري برقم : ٣٤٧٥ .

و أدَّعي أن أوضح مثال على ذلك قرارات أمريكا على مدى تاريخها و كذلك الأمم المتحدة ، فمنذ نشأة الكيان الصهيوني تحت مسمى (إسرائيل) فهي تعطي لها كل الدعم المالي و العسكري و السياسي، و لذلك تجد أن الاعتداء الإسرائيلي على الفلسطينيين و المذابح التي تقوم بها من وجهة نظر أمريكا –و مَن شايعها– هو دفاع عن النفس و من حق (إسرائيل) أن تتخذ ما يحقق أمنها من إجراءات ، بينما قيام الفلسطيني بقذف مستوطن إسرائيلي بالحجارة أو إطلاق صواريخ –حتى وإنْ كانت لا تغني و لا تسمن من جوع في آثارها– تعتبره أمريكا إرهابا ، و يجب محاربته!

تُنتَهَكُ حقوقُ الأقليات المسلمة –بصفة خاصة أهل السنة– في بقاع عديدة من العالم ، و بمباركة من المتعاونين على معاداة المسلم المتديّن من شتَّى دول العالم و لا تتحرك فيهم شعرة ، في حين أنهم يدَّعون الرحمة بالحيوان ، و يقيمون ما يسمونه منظمات حقوق الإنسان التي تدافع عما يتماشى مع أهوائهم فحسب !

إن القانون موضوع لكي يطبَّقَ على الجميع دون محاباة ، لكن الواقع يكشف لنا عن تناقض في التطبيق ، إذ حينما نحب أن نطبق القانون نطبقه و حينما لا نريد فلا ، إنه العرج و العور في الأحكام و المواقف ، فإلى أين المسير بهذا العور و العرج؟!

فلنراجع أنفسَنا قد يكون ما نحن فيه تمحيصا و تمييزا لبعضنا ، و قد يكون بسبب ذنوبنا و لا شك أن كل واحد فينا له ما لا يعلمه إلا الله من الخبايا التي سترها الله عليه ، نسأل الله أن يردنا لدينه ردا جميلا و أن نعرفَ الحقَّ فنتبعَهُ ، و أن يرزقنا البر و التقوى .

إذا سَــرَقَ الفقيرُ رغيفَ خُــبزٍ ... ليأكلَه سَقَوهُ السمَّ ماءَ !
ويسرقُ ذو الغِنَى أرزاقَ شَعبٍ ... بِـرُمَّتِهِ ولا يلقى جزاءَ !

أنت بين (النقص ، و الزيادة)

قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : " ثلاثةٌ أقسِمُ عليهِنَّ ، وأحدِّثُكم حديثًا فاحفظوه" ، قال : " ما نقص مالُ عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها . وأحدثكم حديثا فاحفظوه قال : إنما الدنيا لأربعة نفر ، عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو نيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي في ربه ولا يصل في رحمه ولا يعلم الله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو نيته فوزرهما سواء"(١) .

الرسول رغم أنه لا يحتاج لأن يقسم ، إلا أنه أقسم في هذا الحديث على ثلاثة أمور ، سنتحدث عن أولها .

المال الذي تأخذ منه جزءا لله لا ينقص أبدا ، و هو أمر قد يكون عند الماديين غريب ، إذ لو افترضنا أن لديك (١٠٠) فأخرجت (١٠) لكان المتبقي بيدك (٩٠) ، لكن هناك شيء وراء ذلك لا يدركه إلا المؤمنون لتصديقهم بالغيب ، على النحو التالي :

(١) السنن للترمذي برقم : ٢٣٢٥ .

- ✓ هذه العشرة بناء على وعد الله لا تُحسَبُ على أنها (١٠) فالحسنة بعشر أمثالها ، و الله يضاعف لِمَن يشاء ، فهي حسب قيمتها –مبدئيا– مضروبة في عشرة ، و هي باقية لك عند ربك لا تضيع ، بل و يتم تنميتُها لك . قال النبي صلى الله عليه و سلم : " مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ – وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ – إِلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً ، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ"(١).
- ✓ الذي يبقى بيدك سواء كان للطعام أو الشراب أو الملبس... إلى زوال ، فما تظنه نقصا بحساباتك المادية العقلية هو زيادة بحسابات الإيمان الغيبي ، و "عن عائشة رضي الله عنها : ذبحوا شاة، قلت: يارسول الله ما بقي إلا كتفها . قال : كلُّها قد بقيَ إلا كتفَها"(٢) ، فالرسول اعتبر أن الذي أخرج لله هو الباقي لأنه عند الله أما ما سيؤكل فهو إلى فناء .
- ✓ أضف إلى ذلك أن الله سبحانه يحب النفقة في سبيله ، و يحب أن تعين الآخرين ، فأنت قمتَ بعمل يقربك من الله أكثر مما أنتَ عليه ، و به اكتسبتَ مكانة قد لا تتوافر لكثيرين .
- ✓ و لا تنس إمكانية أن يخلفك الله بما بذلته خيرا منه على أي وجه ، سواء أكان في الدنيا أو الآخرة ، قال سبحانه : "...وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ"(٣).

كما حدثنا النبي الكريم عن أمر طلب منا أن نعيَهُ جيدا : كيف نزيد من حسناتنا و إن لم نكن ذوي مال أو علم؟ إن صاحب المال أو العلم أو مَن جمع الله له الأمرَيْن الباذل لهما أو لكليهما معًا في سبيل الله بالخيرات مأجور مُثَابٌ على فعله ، و إن تمنَّى إنسانٌ أن يكون له مثل ذلك ليبذل في سبيل الله بالخيرات مثلما فعل هذا ، فله من الأجر كأنه فعل ، و هذا أثر النية الصالحة . على النقيض مَن آتاه الله مالا أو علما أو مَن جمع الله له الأمرَيْن الباذل لهما أو لكليهما معًا في سبل الشيطان مأزور مُعاقَبٌ على فعله ، و إن تمنَّى إنسانٌ أن يكون له مثل ذلك ليبذل في سبل الشيطان مثلما فعل هذا ، فله من الوزر كأنه فعل ، و هذا أثر النية الفاسدة .

إذًا بالنية تستطيع زيادة حسناتك أو إنقاصها ، و يمكنك زيادة سيئاتك أو إنقاصها ، فاحذر ليس بالعمل وحده تُحَاسَبُ ، و تنبه لمقصدك من فعلك ؛ لأنه يحدد رصيدك الحقيقي عند الله زيادة و نقصا ، قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى..."(٤).

أنت بين (الصغيرة ، و الكبيرة)

إذا قامت القيامة وجد العبد جميع ما اكتسب من قول و فعل بين يديه كبيرًا كان أو صغيرًا ، قال تعالى : "وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا

---

(١) صحيح مسلم برقم : ٢٣٨٩ ، الفَلُوّ : المُهْر سمى بذلك لأنه فلى عن أمه أي فصل وعزل ، والفصيل : ولد الناقة إذا فصل من إرضاع أمه .

(٢) مسند أحمد بن حنبل برقم : ٢٤٢٨٦ .

(٣) سورة سبأ : ٣٩ .

(٤) صحيح البخاري برقم : ١ .

يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا"(١)، و قال تعالى : "وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ "(٢)، فهذا الوعد الإلهي بالمغفرة لأصحاب الصغائر يغري البعض بالاستهانة بها ، و قد اختلف العلماء في اللمم المعفوّ عنه على أقوال ذكرها الطبري في تفسيره، نلخصها كالتالي :

أ . أنها ذنوب الجاهلية يغفرها الله لهم ، فلا يؤاخذهم بها بعد أن دخلوا الإسلام .

ب . أنه ما يصيبه من ذنب صغير أو كبير من غير إصرار عليه ثم يتوب منه ، ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: "الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ "(٣) . قَالَ: "اللَّمَّةُ مِنَ الزِّنَا، أَنْ يَتُوبَ فَلَا يَعُودُ، وَاللَّمَّةُ مِنَ السَّرِقَةِ أَنْ يَتُوبَ فَلَا يَعُودُ، وَاللَّمَّةُ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ أَنْ يَتُوبَ فَلَا يَعُودُ" قَالَ: فَقَالَ الْحَسَنُ: فَذَلِكَ الْإِلْمَامُ"(٤).

ج . أنها صغار الذنوب مما لا يوجب حدًّا في الدنيا ، ولا تَوَعُّدَ بعقوبته في الآخرة، فاجتناب الكبائر سبب في مغفرة الصغائر ، لكن هذا أيضا معلق بالتوبة وعدم الاسترسال في الصغيرة، حتى لا تتحول باستمرائها إلى كبيرة، و أخرج ابن ابي حاتم في تفسيره : سأل رجلٌ ابنَ عباس: كم الكبائر سبعًا هي؟ قال : "هي إلى سبع مئة أقرب منها إلى سبع ، وإنه لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار " اهـ.

لقد حذر القرآن الكريم من الصغائر ، وأخبر أن الله يكتب على العبد الصغير والكبير من عمله ، فإذا قامت القيامة وجد العبد كل عمله بين يديه : "وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدا"(٥)، و قال تعالى : "وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ "(٦)، ولسوف يحاسب اللهُ العبدَ المؤمن على هذه الصغائر : "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا "(٧) .

كما حذر النبي من الصغائر في مواضع كثيرة، منها قوله صلى الله عليه و سلم : "... و إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ"(٨)، وقوله أيضًا: "إيا كم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد ، فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه"(٩) . قال الشاعر :

سأُسأل عن أمور كنتُ فيها فما عذري هناكَ وما جوابي؟!

---

(١) سورة الكهف : ٤٩ .

(٢) سورة النجم : ٣١ – ٣٢.

(٣) سورة النجم : ٣٢.

(٤) شعب الإيمان للبيهقي برقم : ٦٦٥٧ .

(٥) سورة الكهف : ٤٩ .

(٦) سورة الزلزلة : ٨ .

(٧) سورة الانشقاق : ٧– ٨ .

(٨) صحيح البخاري برقم : ٦٤٧٨ .

(٩) المسند لأحمد بن حنبل برقم : ٢٢٨٦٠ .

فإمَّا أن أُخَــلَّدَ في نــعيــم   وإمَّـــا أن أُخَلَّـدَ في عــذاب

أنت جليس خير ، و جليس سوء

قَالَ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"(١).

فأي النوعين تكون الآن ؟ و أي النوعين تكون بعد قليل مع آخر ؟! ما تقوله في موضع يجعلك الجليس الصا لح بدلا لتك على خير أو بكلمة تصلح بها فسادا أو بمعنى جميل تظهره أو بآية تذكرها أو بنصيحة تقدمها . . . إلخ ، و قد تجلس مع آخر فتخرج منك كلمات المَذَمَّة و السِّباب أو القذف أو الفساد و الإفساد أو النميمة أو الغيبة . . . إلخ ، أنت نفس الشخص جليس صا لح أو جليس سوء ، مصدر للخير أو مصدر للشر ، فلماذا هذا التناقض المذموم المودي بك إلى غياهب المهلكات ؟!

قيِّم ما تُقدِمُ على فعله أو تنوي قوله ، ثم قرر إنفاذه من عدمه .

وإذا تشاجرَ في فؤادكَ مَرَّةً   أمرانِ فاعمَد للأعفِّ الأجملِ

وإذا هممت بأمر سوءٍ فاتَّئِد   وإذا هممتَ بأمر خير فافعَلِ

أنت مؤمن ، و كافر

قال تعالى : "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ . . ."(٢).

إنها البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم و الكفر بهم مع الإيمان بالله وحده ، و العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القومُ بالله وحده ، و إنها المفاصلة الحاسمة التي لا تستبقي شيئا من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان ، وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل ، وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين ، إذ لا بُدَّ لك أن تجمع المتناقضَيْن : الإيمان و الكفر ، لتكون مؤمنا بشيء و كافرا بشيء آخر ؛ فالإيمان بالله يعني الكفر بغيره ، و الكفر بالله يعني الإيمان بغيره ، و الاختيار لك ، و الحساب عند لقاء الله .

---

(١) صحيح مسلم برقم : ٦٨٦٠ .

(٢) سورة الممتحنة : ٤ .

قال تعالى : " فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ*فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ "(١)، أي : فلما عاينوا العذاب قالوا : آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين ، و يقصدون : كفرنا بالأوثان التي أشركناهم في العبادة مع الله .

اعمل وأنتَ من الدُنيا على حَذرٍ　　واعلم بأنكَ بعد الْموت مَبعوثُ

واعلم بأنكَ ما قَدَمتَ من عَـمَلٍ　　يُحصىَ عَليكَ وما خَلَّفتَ مَورُوث

أنت حرٌّ ، و عَبْد

نحن نرى أنفسنا أحرارا لا عبيدا ، لكن الحقيقة أننا نجمع الأمرَين معًا ، فنحن من وجه لنا حرية ، و من وجه نحن عبيد ، انظر لقول الله سبحانه : " وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا "(٢) ، إنه يتحدث عن نبيه القرشي الحر ، إنه عبدٌ لله و هي أرقى مقامات العبودية ، و هي العبودية المانحة للحرية الحقيقية من أي رقٍّ في هذه الدنيا ، فالجمع بينهما لا مناص منه ؛ إذ إنك عبد لله و حر من العبودية لغيره ، و هذا قمة الشرف و الحرية ، و قصة (زيد بن حارثة) الذي فضَّل أن يكون عبدا على أن يكون حرًّا –و قد اجتمع له الأمران– مشهورة ، قال تعالى : " ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ... "(٣) ، و نزول هذه الآية مرتبط بزيد الذي اختطفه بعض العرب من أهله صغيرا في أحد الغارات التي كانت تقوم بها القبائل ، ثم باعه مختطفوه في سوق عكاظ ، واشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، ثم وهبته رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

حين عرف والد زيد وعمه بمكانه رحلا إلى مكة ، و جاءا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلبان فداء ابنهما ، فقال صلى الله عليه وسلم : ...ادعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، ففرح أبو زيد فرحا شديدا بهذا الرد، ثم استدعى الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثةفأخبره بما حدث ، فقال زيد : نعم . هذا أبي ، وهذا عمي ، فقال له صلى الله عليه وسلم : فاختر ما تريد صحبتي أو ذهابك مع أبيك، فقال : ما أنا بالذي اختار عليك .

استغرب العم والأب من زيدٍ هذا الموقف ، فقالا : ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك ؟!

قال : نعم .إني قدر رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي اختار عليه أحدا ، عندها أخذ رسول الله زيدا ، وذهب إلى الكعبة ، وقال : اشهدوا أن زيدًا ابني يرثني و أرثه، فلما رأأبوه وعمه ذلك طابت نفساهما وانصرفا ، وظل زيد يسمى (زيد بن مُحَمَّد)إلى أن أمر الإسلام بإبطال التبني عندما نزلتهذه الآيات من سورة الأحزاب ، وأصبح زيد يسمى (زيد بن حارثة) .

---

(١)سورة الأحزاب : ٥ .

(٢)سورة الجن : ١٩ .

(٣)سورة الأحزاب : ٥ .

أنت عاصٍ، و طائع

قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : " كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ أَبَى . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ يَأْبَى ؟ ! قَالَ : مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى "(١) .

تجد الأمة المسلمة كالإنسان بين الطاعة حينا و المعصية حينا ؛ إذ تجمع الأمة الطائعين و العصاة ، ففيها من أهل الجنة و من أهل النار ، و لكل منهم موقِعُهُ بناءً على عمله – و رحمة الله واسعة – فأهل الطاعة لهم الجنة ، و أهل المعصية لهم طريق آخر ليسلكوه ، نسأل الله العفو و العافية .

ترجو أن تكون من أهل الجنة و من أهل رضا الله ، فهل معنى هذا أنك لا تخطئ ، هل يعني ذلك أنك لا تعصي ؟

لنرجع إلى أبينا آدم – عليه و على نبينا السلام – لقد حكى ربنا عنه في القرآن فقال : "فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى "(٢) .

إذًا تمت المعصية ، و لكنَّ أبانا آدم من أهل الجنة ؛ لأنه بعد معصيته تاب و ندم ، و أناب إلى ربه ، و لعل هذا هو الفارق بين معصية آدم – عليه السلام – و معصية الشيطان ، حيث تاب أبونا آدم و استغفر ، و أناب إلى ربه ، و لم يتكبر ، على النقيض من إبليس الذي تمادى و استكبر ، و لم يستغفر .

تصلُ الذنوبَ إلى الذنوبِ وترتجي	دَرْكَ الجِنانِ بها وفوزَ العابِدِ
ونسيـــــتَ أنَّ اللهَ أخرجَ آدما	منـها إلى الدُّنيا بذنبٍ واحدِ

أنت تعصي ربك هذا وارد على بني آدم ، لكن لا تتمادى و تتكبر كما فعل إبليس ، بل اندم و تب كما فعل أبوك آدم – عليه السلام – و اعمل صالحا ، بهذا تكون تحت مظلة رحمة الله . هذا ضمان الله لك ذكره في كتابه الخالد ، قال تعالى : " ... كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "(٣) .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : " قال بعض السلف : كل من عصى الله، فهو جاهل . وقال معتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن عِكْرِمة في قوله : ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ قال : الدنيا كلها جهالة . رواه ابن أبي حاتم . ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي : رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على ألا يعود وأصلح العمل في المستقبل، (فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) " . اهـ .

---

(١) صحيح البخاري برقم : ٧٢٨٠ .

(٢) سورة طه : ١٢١ – ١٢٢ .

(٣) سورة الأنعام : ٥٤ .

إنها فرصة لا تعوَّض ، لقد كتب ربُّنا على نفسِهِ الرحمةَ ، و رحمتُهُ سبقَتْ غضبَهُ ، فأروا الله من أنفسِكم خيرًا ، و اجتهدوا في طلب رضا الله بما يَرتضيه ، و اطلبوا من الله التوفيق للهدى و الخاتمة التي تُرضيه .

يا ربِّ هيِّئ لنا من أمرنا رَشَدا   واجعل معونتك الحُسنى لنا مددا

ولا تكِلْنا إلى تدبيرِ أنفسِنا   فالنفسُ تعجز عن إصلاح ما فسدا

أنت شديد ، و رحيم

قال تعالى : " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا..."(١) .

وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار المحاربين ، رحيما برا بالأخيار المؤمنين ، غضوبا عبوسا في وجه الكافر المؤذي ، ضحوكا بشوشا في وجه أخيه المؤمن ، كما قال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً..."(٢) ، كما ورد في الحديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى "(٣).

لا بد لك أن تجمع المتناقضَيْن : الرحمة و القسوة ، لتكون رحيما مع المستحقين للرحمة ، و قاسيا مع المستحقين للقسوة ، و هذا الجمع فيالقدرة على المتناقضين مما يميز ذوي العقول الراجحة ؛ لأنه من الحكمة أن تضع الأمور في نصابها ، و أن تعامل كل شخص بما يناسبه ، و صدق شاعر الحكمة (المتنبي) حين قال :

ووضْعُ النَّدى في مَوضِع السيف بالعلا   مُضِرٌّ كوضْع السيف في مَوضِع النَّدى

(١) سورة طه : ١٢١-١٢٢ .

(٢) سورة التوبة : ١٢٣ .

(٣) صحيح مسلم برقم : ٦٧٥١ .

أنت الراعي ، و الرعية

قَالَ النبي صلى الله عليه وسلم : " أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهْوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهْوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهْوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"(١).

ذكر النبيُّ الكريم في الحديث أكبرَ ولاية (الإمام) و أصغرَ ولاية (الخادم) ، فما بين الولايتين كلهم مسؤولون، فعليهم أن يتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه سائل كل راعٍ عما استرعاه حفظه أم فرط فيه؟ و أنت إما أنه هناك مَن يرعاك أو أنك تقوم على رعاية آخر ، فأنت في كل الأحوال تقوم بالدَّوْرَيْنِ كليهما : الراعي و الرعية ، و لا ضير عليك في هذا ، المهم هو حسن القيام بالأمر في موضعه ، نسأل الله العون و التوفيق .

أنت عزيز ، و ذليل

قال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ . . ."(٢).

هذه من صفات المؤمنين الكمَّل : أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه ووليه ، متعززا على خصمه وعدوه ، كما قال تعالى : "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ . . ."(٣) ، كما ورد الترغيب في التواضع و العفو بما يجعل الإنسان ذا مكانة عالية عند الله ، و هذا هو مصدر الرفعة و العزة الحقيقية ؛ فلا يذل الإنسان نفسه إرضاءً لله و رغبةً فيما عند الله إلا و يرفع الله قدره ، عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ"(٤).

لا بد لك أن تجمع المتناقضَيْن : العزة و الذلة ، لتكون عزيزا مع المستحقين لذلك من الكفرة ، و تكون ذليلا لإخوانك من المؤمنين ، فكما قلنا سابقا : ليس كلُّ التناقض مذمومًا .

---

(١) صحيح البخاري برقم : ٧١٣٨ .

(٢) سورة المائدة : ٥٤ .

(٣) سورة الفتح : ٢٩ .

(٤) صحيح مسلم برقم : ٦٧٥٧ .

أنت في سراء ، و في ضراء

قَالَ النبي صلى الله عليه وسلم : " عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ ، وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ إنْ أصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ ، وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ "(١)، أنت تقوم بالدورين معا لأن الدنيا لا تستقر على حال ، فساعة تتلقى ما يضحكك ، و أخرى تقابل ما يبكيك ، و المدار على ردفعلك في الأمرين ، فالأمر كله لله .

يروى أن ملكا كان له وزير حصيف(٢) فلسفته في الحياة : أن كلَّ شيء يقدره الله خيرٌ ، فخرج معه ذات يوم في رحلة صيد بري ، وعندما حان وقت الغذاء تناول الملك تفاحة ليقطعها بالسكين ، انفلت منه السكين على إصبعه فجرح إصبعه جرحا غائرًا كاد أن يقطعه ، فقال الوزير : لعله خير ، فرد الملك غاضبا : وأي خير في ذلك أيها الأحمق ؟ثم أمر به فأُدخِلَ السجنَ .

بعدها بأيام قليلة خرج الملك للصيد وحده دون الوزير –الذي ما يزال سجينا – وظل يتبع أرنبا بريا حتى أبعد في الغابة ، و وقع وسط قوم يعبدون أصناما ، وكان هذا اليوم هو يوم تقديم القرابين ، فلما رأوا الملك قالوا : هذا سمين يصلح قربانا لآلهتنا ، ولما عرضوه على الكاهن ، قال : لا يصلح قربانا لأن بإصبعه قطعا ، فتركوه .

انطلق الملك مسرعا ، وقد نجا من شر ميتة . أول شيء فعله بعد أن وصل قصره أنه أطلق وزيره من سجنه ، ثم قال له : لقد كان قطع إصبعي خيرا عظيما ؛ فقد نجاني الله به من شر ميتة . . . و حكى له ما حدث له ، ثم سأله قائلا : . . .ولكن أيُّ خير في أنى سجنْتُكَ ؟

فقال الوزير : خير – و الله يا مولاي – عظيم ، فلو كنتُ معك لأخذوني أنا قربانا لآلهتهم .

قال الشاعر :

اصبِر قليلا فبَعدَ العُسرِ تَيسيرُ وَكُلُّ أمرٍ لهُ وقتٌ وتَدبيرُ

وللمُهَيمِنِ في حـــالاتِنا نظَـــرٌ وفوقَ تَقديرِنا للهِ تَقديرُ

و قال آخر :

لا تَجزعنَّ إذا نابتكَ نائبةٌ ولا تضيقنَّ في خطبٍ إذا نابا

ما يُغلق اللهُ بابا دونَ قارعةٍ إلا ويفـــتحُ بالتيســـيرِ أبـوابا

(١) صحيح مسلم برقم : ٧٦٩٢ .

(٢) استحكم عقله ،وجاد رأيه.

أحسن التعامل مع قدر الله ، فتقبلك له بالصبر و الشكر هو الفلك الذي يدور فيه المؤمن المتبع لنبيه ، و بهذا تكون في كل حالاتك مأجور ، سواء أكنتَ في سراء أم في ضراء .

أنت خائف، و راجٍ

إن المسلم يطير في دنياه إلى الله بجناحين : هما الخوف و الرجاء ، قال تعالى : "...وَإِيَّايَ فَارْهَبُون"(١) ، فالخوفُ أنتتوقُّع مكروهاو هو منزلة من منازل العبودية ،و من عبادات القلو بأصله المعرفة بعقاب الله و عذابه ، والخوف من اللهيحجزُكَ عن محارمِ اللهِ؛ لأنك تخشى أن تكون ممن يعاقبهم الله لذنوبهم ، أو مِمَّن غضب عليهم لأخطائهم ، أمَّا الرجاء فهو الأمَلو الاستبشارُ بالخير ، و هو كذلك عبادة قلبية أصلها المعرفة بجود الله وكرمه وعفوه وحلمه، قال تعالى : " فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا "(٢).

الخوف و الرجاء من الصفات التي تقرب المسلم من الله ، قال تعالى : " أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورا"(٣)، كلاهما باعثٌ على العملِ الصالحِ و على الإخلاصِ، و بالتالي سبب للنجاة، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : "ثلاثٌ مُهْلِكاتٌ وثلاثٌ منْجِياتٌ، فقالَ: ثلاثٌ مُهْلِكاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهَوًى مُتَّبَعٌ، وإعْجابُ المَرءِ بِنَفْسِهِ، وثلاثٌ منْجِياتٌ: خَشْيَةُ الله في السِّرِّ والعَلانِيَةِ، والقَصْدُ في الفَقْرِ والغِنَى، والعَدْلُ في الغَضَبِ والرِّضا"(٤)، قال الشاعر :

أسيرُ الخَطايا عندَ بابكَ واقفٌ ... على وَجَلٍ مِمَّا به أنتَ عارفُ

يخافُ ذنوبا لم يغِبْ عنكَ غيبُها ... ويرجوكَ فيها فهو راجٍ وخائفُ

ومن ذا الذي يُرجى سِواكَ ويُتَّقي ... وما لكَ في فصلِ القضاءِ مخالفُ

فيا سيدي لا تُخزِني في صَحيفتي ... إذا نُشِرتْ يوم الحسابِ الصحائفُ

---

(١)سورة البقرة : ٤٠ .

(٢)سورة الكهف : ١١٠ .

(٣)سورة الإسراء : ٥٧ .

(٤)صحيح مسلم برقم : ٧٦٩٢ .

وكُن مُؤنسي في ظلمةِ القبرِ عندما يصدُّ ذوو وُدِّي ويجفو الْمُوَالِفُ

لئن ضاقَ عني عفوكَ الواسعُ الـــ ـذي أُرجِّي لإسـرافي فإنِّي لَتَالِفُ

أنت مرفوع ، و مرفوع عليه

إن الاحتياج سبيل لأن يحدث بينك و بين الآخر تبادل منفعة ؛ فالاحتياج إلى شيء يدفع الإنسان إلى جهة أو شخص أعلى منه في هذا المجال لسد حاجته ، فيتحقق له الانتفاع بما يحتاج.

على سبيل المثال : يلجئك الألم لأن تذهب إلى الطبيب الذي تأخذ منه توصيفا وعلاجا ، بينما هو يأخذ منك مالا و على قدر هذا يكون ذاك ، و يلجئك الجوع لأن تذهب إلى المطعم الذي تأخذ منه طعاما بينما هو يأخذ منك مالا و على قدر هذا يكون ذاك ، و الرغبة في المال قد تلجئك لأن تذهب إلى بلد آخر تأخذ منه مالا لسد احتياجاتك ، بينما هو يأخذ منك جهدا و على قدر هذا يكون ذاك ... و هكذا.

فأنت و الطبيب أو مالك المطعم أو صاحب العمل ... إلخ ، جمَعَكُم الاحتياجُ و الانتفاع ، و لا تظنن أنه من جهة واحدة ، فكلكم محتاج ، و كلكم منتفع ، و كل منهم سيحتاج إليك في فترة ما ، فتقوم أنت بالدور الذي كانوا فيه ، لأن المخلوق لا يجتمع له كل شيء في هذه الحياة مهما كان ، فما يحتاجه الفقير يجده عند الثريّ ، و ما يحتاجه الثريّ يجده عند الفقير ، الطبيب يحتاج للسباك ، و السباك يحتاج للطبيب . هذا رفعه الله على ذاك في معرفته بالطب ، بينما الآخر رفعه الله على هذا في معرفته بالسباكة ، و كلاهما محتاج للمال لسد حاجات أخرى ، يجدون إتقانها عند أناس آخرين ؛ فإن كنت مرفوعا في أمر ، فاعلم أن هناك من رفعه الله عليك في أمر لا تحسنه .



قال تعالى: " أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ "(١).

كلما ارتقت العلاقة بينك و بين الآخر زاد الاحتياج و قلَّ تبادل المنفعة ؛ إذ تزداد من جهة على حساب جهة ، و يتضح ذلك في احتياجك للأم أو للأب ، فأنت تحصل على الكثير ماديا و معنويا ، بينما هما في عطائهما لا ينتظران منك بل يريدان لك ، و أنت تحاول جاهدا في طاعتهما أو نفعهما بأي وجه ، فيقبلان منك أحيانا –حتى في حال كبرهما– و قد لا يقبلان أحيانا أخرى ، و تنعكس هذه

(١) سورة الزخرف : ٣٢.

العلاقة حينما يكون لديك أبناء ، فتصير أبا أو تصبحين أما .

فإذا ارتقت العلاقة إلى أقصى صورة لها وجدت مع ازدياد الاحتياج و الانتفاع أنهما من جهة واحدة فقط ، و يتجلى ذلك في علاقة المخلوق بالخالق ؛ فانتفاعُك من خلال ما ينعم به عليك الخالق كثير غير منقطع ، سواء قبل خروجك لحيز الوجود أو بعد خروجك لحيز الوجود ، في حين أنك لا تنفع الخالقَ ، و لا ينتظر منك شيئا ، حتى الطاعة و العبادة المتوجهة منك له و إن كانت خالصة خاشعة فالمنتفع منها هو أنت أيها المخلوق ؛ لأنها تسبب لك استحقاق الرحمة و نيل الرضا و المثوبة من الخالق ، قال تعالى : "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ "(١).

إن الله غير محتاج لنا ، و نحن المفتقرون إليه دوما ، قال تعالى : " قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ "(٢) ؛ فلا تنقطع حاجاتنا لديه ، و لا ينقطع انتفاعُنا بنعَمِهِ سبحانه في الحياة و ما قبلها و لا في الممات وما بعده ، و رَفْعُهُ سبحانه لبعضنا على بعض في أشياء نعمة كبرى لتعمر الأرض ، و تحسن معاملة أحدنا الآخر ، و تكون سببا في الثواب ، إذ لا تنفك في حياتك عن أن تكون مرفوعا أو مرفوعا عليه ، و في كلا الحالين أنت محتاج و منتفع ، فلا تعجبنَّك نفسُك ، أو تتكبر على الآخر ، فأنت بلا حول و لا قوة إلا بما يمدك به الله جل في علاه ، و دوام الحال محال ؛ إذ ليس هناك استمرار لأحد في مكانة واحدة ، إنه موقع نتبادله مع بعضنا البعض إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا ، قال تعالى : "قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ "(٣) .

تجد نفسك تارة مرفوعا على الآخر ، و تارة أخرى يكون الآخر مرفوعا عليك ، إنه القيام بالدور و الدور المضاد في ذاتِك ، و إنه لَمِن آيات الله في خلقه و إعجازه في كونه ، فسبحان مَن قسَّم الأرزاق ، و خفض ، و رفع .

أنت مُحِبٌّ ، و كاره

قال تعالى : "وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ "(٤) .
هذا الخبر الْمُجمَل ، يوضحه قوله تعالى في سورة النساء في سياق الحديث عن مفارقة النساء : "فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا "(٥) .

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦-٥٨ .
(٢) سورة الإخلاص : ١-٢ .
(٣) سورة الأعراف : ١٢٩ .
(٤) سورة البقرة : ٢١٦ .
(٥) سورة النساء : ١٩ .

ذكر الدكتور مُحَّد العريفي قصة حينما تكلم عن آداب الدعاء، و أنه لا ينبغي أن يخصص في الدعاء شيئا بعينه بل يقول : اللهم اكتب لي هذا الشيء إن كان لي فيه خيرا , واصرفه عني إن كان شرا لي ، ثم ذكر قصة : " كان أحد الشباب قد عقد على فتاة، فتعلق قلبه بها ، وأحبها ، ولم يبقَ إلا أن يُحدَّدَ موعدُ الزفاف ، بعد مدة من العقد إذا بالفتاة ترفض هذا الشاب ، وتطلب منه أن يتركها ، وأنها لا تريده زوجا ، حاولوا معها بأن هذا الآن زوجها شرعا وقد تم العقد ، وحاول هو معها أكثر من شهر فرفضت ، فطلقها ، وكان قلبه قد تعلق بها وأحبها فأخذ يدعو ، ويلح في الدعاء أن تعود إليه ، و ما علم هذا أن قدر الله لابن آدم كله خير .
تزوجت هذه الفتاة من رجل آخر ، وما هي إلا مدة وأصيبَتْ هذه الفتاة بسرطان في الثدي فتم استئصال ثديها ، ثم بعد مدة أصيبَتْ بسرطان في ثديها الآخر فتم استئصاله ، وبعد مدة من ذلك أصيبت بمرض في الدماغ ، فسبحان الله ! بقي زوجُهَا هذا يطبِّبُهَا ويمرضها ، فيعمل عندها ممرضا وسائقا ، وما هنئ بعيش معها ، وبقيتْ معه مدة تسعة أشهر تقريبا ، ثم ماتت " ا.هـ.

فعسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم :عسى تأخيرك عن سفرٍ نجاة من الهلكة ، وعسى حرمانُك من زواجٍ بركة في غيره ، وعسى طلاقك من زوجك راحة من عناء لا تطيقه ، وعسى ردك عن وظيفةٍ تطلبها إبقاء لما هو أعلى مكانة و أفضل عائدا ، وعسى حرمانك من طفلٍ إبعاد لك عن مساءات لا تتحملها .

وعسى أن تكرهوا شيئا و هو خيرٌلكم لأنه يعلم الأصلح لكم في الدنيا و الآخرة ، وأنتم بعقولكم القاصرة لا تعلمون ، فلا يضيق صدرُك لأي شيء يحدث لك كرهته أو أحببته لأنه – بإذن الله – خير لك ، و إنْ لم تتبين وجه الخير فيه ، عن صهيب قال : بينا رسول الله صلى الله عليه و سلم قاعد مع أصحابه إذ ضحك ، فقال : ألا تسألوني مم أضحك ؟ قالوا : يا رسول الله ومم تضحك ؟ قال : عجبت لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير وليس كل أحد أمره كله له خير إلا المؤمن "(١).

دعاء لك ، و دعاء عليك

يروى " أن امرأة دخلت على " هارون الرشيد " وعنده جماعة من وجوه أصحابه ، فقالت يا أمير المؤمنين : (أقر اللهُ عينَكَ، وفرَّحكَ بما آتاك ، وأتمَّ سعدَكَ . لقد حكمْتَ فقسطْتَ) .

فقال لها : من تكونين أيتها المرأة ؟ فقالت : من آل برمك ، مِمَّن قتلتَ رجالَهم ، وأخذتَ أموالَهم ، وسلبتَ نوالَهم .

فقال : أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ، ونفذ فيهم قدَرُهُ ، وأما المال فمردود إليكِ .

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل برقم : ٢٣٩٧٥ .

ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه ، فقال لهم : أتدرون ما قالت هذه المرأة ؟

فقالوا : ما نراها قالت إلا خيرا !

قال : ما أظنكم فهمتم ذلك ،أما قولها : (أقر الله عينك) أي : أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت ، وأما قولها : (وفرحك بما آتاك) فأخذته من قوله تعالى : "حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة" ، وأما قولها : (وأتم الله سعدك) ،فأخذته من قول الشاعر :

إذا تمَّ أمرٌ بَدَا نقصُهُ ترقَّب زوالا إذا قيل تمّ

(أما قولها حكمت فقسطت) فأخذته من قوله تعالى : "وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا" .

فتعجبوا من ذلك .

وحكي أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى ، فقال له : أطال الله بقاءك وأقر عينك وجعل يومي قبل يومك و الله إنه ليسرني ما يسرك .

فأحسن إليه وأجازه على دعائه و أمر له بصلة وكان ذلك دعاء عليه لأن معنى قوله : أطال الله بقاءك حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية ، و أما قوله : وأقر عينك فمعناه سكن الله حركتها أي أعماها ، وأما قوله : وجعل يومي قبل يومك أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنة قبل يومك الذي تدخل فيه النار ، وأما قوله : إنه ليسرني ما يسرك فإن العافية تسره كما تسر الآخر .

فانظر إلى الاشتراك وفائدته ، ولولا الاشتراك ما تهيأ لمتستر مراد ولا سلم له في التخلص قياد"(١).

(١) المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين الأبشيهي –ص : ١٠٢ .

نصائح في قصيدة "أبي الفتح البستيّ"

زيادَةُ الْمَرءِ في دُنياهُ نقصانُ ... وربْحُهُ غيرَ مَحْض الخَير خُسرانُ
وكُل وِجدانِ حَظٍّ لا ثَباتَ لَهُ ... فإنَّ مَعناهُ في التَّحقيق فُقْدانُ
يا عامِراً لخَرابِ الدَّهرِ مُجتهِداً ... باللهِ هل لخَرابِ العمر عُمرانُ؟
ويا حَريصاً على الأموالِ تجمَعُها ... أُنْسِيتَ أنَّ سُرورَ المالِ أحْزانُ
زَعِ(١) الفؤادَ عنِ الدُّنيا وزينتها ... فصَفْوُها كَدَرٌ والوَصلُ هُجْرانُ
وأَرعِ سَمعَكَ أمثالاً أُفَصِّلُها ... كما يُفَصَّلُ ياقوتٌ ومَرْجانُ
أحسِنْ إلى النّاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ ... فطالَما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ
يا خادمَ الجسم كم تشقى بخدمته ... أتطلب الربح فيما فيه خسران؟!
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وإنْ أساءَ مُسيءٌ فلْيَكنْ لكَ في ... عُروضِ زَلَّتِهِ صَفْحٌ وغُفرانُ
وكُنْ على الدَّهرِ مِعواناً لذي أمَلٍ ... يَرجو نَداكَ فإنَّ الحُرَّ مِعْوانُ
واشدُدْ يَدَيْكَ بحَبلِ اللهِ مُعتَصِماً ... فإنَّهُ الرُّكْنُ إنْ خانَتْكَ أركانُ
مَنْ يَتَّقِ اللهَ يُحْمَدْ في عَواقِبِه ... وَيكفِهِ شَرَّ مَنْ عَزُّوا ومَنْ هانُوا
مَنِ استعانَ بغَيرِ اللهِ في طَلَبٍ ... فإنَّ ناصِرَهُ عَجزٌ وخِذْلانُ
من كان للخير منّاعاً فليس له ... على الحقيقة إخوان وأَخدانُ(٢)
مَنْ جادَ بالمالِ مالَ النَّاسُ قاطِبَةً ... إلَيهِ والمالُ للإنسانِ فَتّانُ
مَنْ سالَمَ النّاسَ يسلَمْ من غوائِلِهِمْ(٣) ... وعاشَ وَهْوَ قَريرُ العَينِ جَذْلانُ(٤)
مَنْ كانَ للعَقلِ سُلطانٌ عَلَيهِ غَدا ... وما على نَفسِهِ للحِرْصِ سُلطانُ
مَنْ مَدَّ طَرْفاً لفَرطِ الجهلِ نحو هَوى ... أغضى على الحَقّ يَوماً وهْوَ خَزْيانُ(٥)

(١) أي: كُفَّ.
(٢) أي: أصدقاء.
(٣) أي: شرورهم.
(٤) أي: فرحان.
(٥) أي: ذليل.

مَنْ عاشَرَ النّاسَ لاقى مِنهُمُ نَصبًا ... لأنَّ سوسَهُمُ بَغْيٌ وعُدْوانُ

ومَنْ يُفَتّشْ عنِ الإخوانِ يقلِهِمُ(١) ... فَجُلُّ(٢) إخْوانِ هَذا العَصرِ خَوّانُ

مَناستشارَ صُروفَ الدَّهرِ قامَ لهُ ... على حقيقةِ طَبعِ الدهرِ بُرهانُ

مَنْ يَزْرَعِ الشَّرَّ يَحصُدْ في عواقبِهِ ... نَدامَةً ولِحَصدِ الزَّرْعِ إبّانُ(٣)

مَنِ استَنامَ إلى الأشرارِ نامَ وفي ... قَميصِهِ مِنهُمُ صِلٌّ(٤) وثُعْبانُ

كُنْ رَيِّقَ البِشْرِ(٥) إنْ الحُرَّ هِمَّتُهُ ... صَحيفَةٌ وعَلَيها البِشْرُ عُنْوانُ

ورافِقِ الرِّفْقَ في كُلِّ الأمورِ فلَمْ ... يندَمْ رَفيقٌ ولم يذمُمْهُ إنسانُ

ولا يَغُرَّنْكَ حَظٌّ جَرَّهْ خَرَقٌ(٦) ... فالخَرْقُ هَدمٌ ورِفقُ المَرءِ بُنْيانُ

أحسِنْ إذا كانَ إمكانٌ ومَقدِرةٌ ... فلن يَدومَ على الإحسانِ إمكانُ

فالرَّوضُ يَزدانُ بالأنْوَارِ فاغِمةً(٧) ... والحُرُّ بالعدلْ والإحسانِ يَزْدانُ

صُنْ حُرَّ وَجهِكَ لا تَهتِكْ غِلالتهُ(٨) ... فكُل حُرٍّ لِحُرِّ الوَجهِ صَوّانُ

فإنْ لَقِيتَ عدُوّاً فَالْقَهُ أبَدا ... والوَجهُ بالبِشْرِ والإشراقِ غَضّانُ(٩)

دَعِ التكاسُلَ في الخَيراتِ تطلُبُها ... فليسَ يسعَدُ بالخَيراتِ كَسْلانُ

لا ظِلَّ للمَرءِ يعرى من تُقًى ونُهًى ... وإن أظلَّتْهُ أوراقٌ وأفنانُ(١٠)

والنّاسُ أعوانُ مَنْ وَالتْهُ دولَتُهُ ... وهُمْ عليهِ إذا عادَتْهُ أعوانُ

سَحْبانُ(١١) من غَيرِ مالٍ باقِلٌ(١٢) حَصرٌ ... وباقِلٌ في ثَراءِ المالِ سَحْبانُ

---

(١) أي: يبغضهم.

(٢) أي: فأكثر.

(٣) أي: وقت.

(٤) أي: أخبث الحيات.

(٥) أي: جميل البشر دائمه.

(٦) أي: حُمق.

(٧) أي: متفتحة.

(٨) أي: الثوب الرقيق الساتر له.

(٩) أي: طري.

(١٠) أي: غصون.

(١١) رجل من بني وائل هو مضرب العرب في الفصاحة و البيان.

(١٢) رجل من بني إياد هو مضرب العرب في العي و العجز عن الإبانة.

لا تُودِعِ السِرَّ وَشَّاءً(١) يبوحُ بهِ   فما رعى غَنَما في الدَّوِّ(٢) سِرْحانُ(٣)

لا تَحسَبِ النَّاسَ طَبْعا واحِدا فَلهُمْ   غرائزٌ لسْتَ تُحصِيهن ألوانُ

ما كُلُّ ماءٍ كصَدَّاءٍ(٤) لوارِدِه   نَعَمْ ولا كُلُّ نَبْتٍ فهو سَعْدانُ(٥)

لا تَخدِشَنَّ بِمَطْلٍ(٦) وَجْهَ عارِفَةٍ(٧)   فالبِرُّ يَخدِشُهُ مَطْلٌ ولَيّانُ(٨)

لا تَستشِرْ غيرَ نَدْبٍ حازِمٍ يَقِظٍ   قدِ اسْتَوى فيه إسْرارٌ وإعْلانُ

فللِتدابيرِ فُرْسانٌ إذا رَكِبُوا   فيها أبَرُّوا كما لِلحَرْبِ فُرْسانُ

وللأمورِ مَواقيتٌ مُقَدَّرَةٌ   وكُلُّ أمرٍ لهُ حَدٌّ ومِيزانُ

فلا تكُنْ عَجِلا بالأمرِ تطلُبُهُ   فليسَ يُحمَدُ قبلَ النُّضْجِ بُحْرانُ(٩)

كفى مِنَ العيشِ ما قدْ سَدَّ من عَوَزٍ(١٠)   ففيهِ للحُرِّ إن حققْتَ غُنيانُ(١١)

وذو القَناعَةِ راضٍ من مَعيشَتِهِ   وصاحبُ الحِرْصِ إن أثرى فَغَضْبانُ

حَسْبُ الفتى عقلُهُ خِلاًّ(١٢) يُعاشِرُهُ   إذا تحاماهُ إخوانٌ وخِلاّنُ

هُما رضيعا لِبانٍ(١٣) حِكمَةٌ وتُقًى   وساكِنا وَطَنٍ(١٤) مالٌ وطُغْيانُ

إذا نَبا بكريمٍ موطِنٌ فلَهُ   وراءهُ في بسيطِ الأرضِ أوطانُ

يا ظالما فرِحا بالعِزِّ ساعَدَهُ   إن كنت في سِنَةٍ(١٥) فالدَّهرُ يقظانُ

---

(١) أي: ناقلا.

(٢) أي: الصحراء الواسعة.

(٣) أي: ذئب.

(٤) الصدى: العطش الشديد، ورجع الصوت، وصاداه: عارضه، وصَدّاء: اسم عين ماء لم يكن عند العرب أعذب من مائها.

(٥) اسم عشب بري يعد من أفضل مراعي الإبل، إذا رعته غَزُرَ لبنها وزاد دسمه وطيبه.

(٦) أي: تسويف.

(٧) أي: معروف.

(٨) أي: مماطلة.

(٩) البُحران لفظ مولد يوناني الأصل يعني: التغير الذي يحدث للعليل دفعة واحدة في الأمراض الحادة: إلى الصحة أو إلى المرض، فإن وقع بعد نضج مادة المرض فهو علامة الصحة والشفاء، وإن وقع قبل نضجها فهو علامة الموت والهلاك.

(١٠) أي: حاجة وفقر.

(١١) أي: استغناء.

(١٢) أي: صديقا.

(١٣) رضيعا لبان أي: يرضعان من ثدي واحد.

(١٤) ساكنا وطن أي: متلازمان.

(١٥) أي: غفلة.

ما استَمْرأ(١) الظُّلْمَ لو أنصفت آكِلُهُ وهلْ يلَذُّ مَذاقٌ و هو خُطْبانُ(٢)؟!

يا أيُّها العَالِمُ المَرضِيُّ سيرَتُهُ أبشِرْ فأنتَ بغَيرِ الماءِ رَيانُ(٣)

ويا أخَا الجَهلِ لو أصبَحْتَ في لُجَجٍ(٤) فأنتَ ما بينَها لا شَكَّ ظمآنُ(٥)

لا تحسَبَنَّ سُرورًا دائمًا أبَدًا مَنْ سَرَّهُ زمَنٌ ساءَتْهُ أزمانُ

إذا جفاك(٦) خليلٌ كنت تألفه فاطلب سواه فكل الناس إخوانُ

إذا نبا(٧) بكريم موطن فلَهُ وراءَهُ في بسيط الأرضِ أوطانُ

يا رافِلا(٨) في الشَّبابِ الرحب مُنتشِيا(٩) مِنْ كأسِهِ هلْ أصابَ الرُّشْدَ نَشْوانُ(١٠)؟!

لا تَغتَرِرْ بشَبابٍ رائقٍ(١١) نضرٍ(١٢) فكَم تَقدَّمَ قبَلَ الشِّيْبِ شُبَّانُ!

ويا أخَا الشَّيبِ(١٣) لو ناصَحتَ نفسَكَ لم يكُنْ لمثِلكَ في اللَّذاتِ إمعَانُ(١٤)

هبِ الشَّبيبَةَ(١٥) تُبْدي عُذرَ صاحبها ما عُذْرُ أشيَبَ يَستهويهِ شَيْطانُ

كُلُّ الذُّنوبِ فإنَّ اللهَ يغفِرها إن شَيَّعَ(١٦) المَرءَ إخلاصٌ وإيمانُ

وكُلُّ كَسْرٍ فإنَّ الدين يَجبُرُهُ وما لِكَسرِ قَناةِ الدِّينِ(١٧) جُبْرانُ

---

(١) أي: استطاب.

(٢) الخُطبان: الحنظل إذا اصفرَّ و اشتدت مرارته.

(٣) أي: مُرْتَوٍ.

(٤) اللجج: جمع اللجة و هي معظم الماء.

(٥) أي: عطشانٍ.

(٦) أي: تباعد عنك.

(٧) أي: ضاق عليه.

(٨) أي: متبخترا.

(٩) أي: سكران.

(١٠) أي: سكران.

(١١) أي: جميل.

(١٢) أي: ناعم.

(١٣) أي: يا صاحب الشيب في رأسه.

(١٤) أي: تمادٍ.

(١٥) أي: حداثة السن.

(١٦) أي: صاحَبَ.

(١٧) القناة: الرمح. والمراد بكسر قناة الدين: ذهاب الدين وفقده.

خذها سوائر أمثالٍ مهذَّبةً فيها لمَن يبتغي التِّبيانَ تِبيانُ

ما ضرَّ حسَّانَها(١) والطبعُ صائِغُها إنْ لم يصُغْها قَريعُ الشِّعرِ حَسَّانُ(٢)

- الشاعر هو : البُسْتِيّ أبو الفتح علي بن مُحَمَّد ، من بلدة بُسْت في بلاد الأفغان ، وهو من شعراء القرن الرابع الهجري . ارتحل إلى مدينة بخارى في أوزبكستان ، وفيها توفي عام ٤٠٠ هجري .

(١) أي : قائلها .

(٢) قريع الشعر يعني به سيد الشعر : الصحابي الجليل حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه .

الْخَاتِمَة

استعرضنا معًا أشكالا من المتضادات و المتناقضات سواء في الكون حولنا أو في أنفسنا ، و ما في أنفسنا بعضه مقبول و بعضه غير مقبول ، فأنت بين حالين ، و قد يكون هذين الحالين متناقضَين أو متضادين ، ليست هذه هي المشكلة ، لكن اعرض أحوالك على معيار صحيح ، و لا أصحَّ من الشرع لنعرض عليه أحوالنا ، كي تستقيم أمورُنا ، و ليس معنى استقامة الأمر أن تظل حياتك في رخاء فلا يضيق عيشك ، و ليس معناها أن تظل في ارتفاع فلا تسقط ، أبدا بل استقامة الأمر بارتباط أحوالك بالرضا بقضاء الله و قدره ، و ارتباط حياتك بطاعة الله ، و تدبُّر آياته سواء منها القرآنية أو الكونية ، فهذا هو مصدر سعادتك التي تبحث عنها .

أنت دوما في تقلب أحوال طالما كنت في الدنيا ، قل لي بربك هل رأيت شخصا ضاحكا طول عمره أو آخر باكيا طول عمره ؟ فسُنَّةَ الله في كونه التغير و التبدل ، تضحك الآن و تبكي بعد حين ، تحزن الآن و تفرح بعد حين ، تقوى الآن و تضعف بعد حين . . . لا تتضجر ، فهذه حال الدنيا تسري على الفقير و الثري ، تسري على الضعيف و القوي ، تسري على الكبير و الصغير ، إنها الدنيا فتدبر حالك معها و حال الكون كله ، تجد التقلُّبَ سِمَتُهَا .

كُن عن همومك مُعرضا	و كِلِ الأمورَ إلى القضا
وانعم بطولِ سلامـــةٍ	تُسليك عمَّا قد مضى
فلربما اتسع المضيق	و ربـــما ضاق الفضا
ولربَّ أمرٍ مســـخطٍ	لك في عواقـــبِهِ رضا
الله يفعل ما يشـــــاء	فـــلا تكـن متــعرِّضا

يا رب نرضى بقدرك الذي قدرته لنا ، و نرتضي بقضائك الذي حكمت به علينا ، غير أننا لا نرضى بما يغضبُكَ و لا بمَن أغضبك ، نسألك لنا و للمسلمين جميعا الهداية و التوفيق ، و نرجو منك العافية في الدارَيْن .

كتبه أبو عبد الرحمن :

وَلِيد إبراهيم دُرَّه

الْمَرَاجِع

١. القرآن الكريم .
٢. تفسير القرآن العظيم ، للإمام / ابن كثير .
٣. جامع البيان في تفسير القرآن ، للإمام / ابن جرير الطبري .
٤. الجامع لأحكام القرآن ، للإمام / أبي عبد الله مُحَمَّد بن أحمد القرطبي .
٥. معالم التنزيل في تفسير القرآن للإمام / لأبي مُحَمَّد البغوي .
٦. الإتقان في علوم القرآن، للإمام / جلال الدين السيوطي .
٧. صحيح البخاري، للإمام / مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري .
٨. صحيح مسلم ، للإمام / مسلم بن الحجاج القشيري .
٩. المستدرك على الصحيحين ، للإمام / مُحَمَّدبنعبداللهالحاكمالنيسابوري .
١٠. الجامع الصحيح ، للإمام / مُحَمَّد بن عيسى الترمذي .
١١. سنن أبي داود ، للإمام / أبو داود سليمان الأشعثالسجستاني .
١٢. سنن ابن ماجه ، للإمام / مُحَمَّد بن يزيد القزويني .
١٣. سنن النسائي، للإمام / أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي .
١٤. الأدب المفرد ، للإمام / مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري .
١٥. لسان العرب ، لابن منظور المصري .
١٦. معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس .
١٧. المعجم الوسيط ، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة .
١٨. جواهر الأدب ، لأحمد الهاشمي .
١٩. البحور الزاخرة في علوم الآخرة ، لمحمد بن أحمد السفاريني .
٢٠. البداية و النهاية ، لابن كثير .
٢١. حلية الأولياءوطبقاتالأصفياء ، لأبينعيمأحمدبنعبداللهبنمهرانالأصبهاني .
٢٢. المعجزة القرآنية ، للدكتور / مُحَمَّد حسن هيتو .
٢٣. الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، للدكتور / زغلول النجار .
٢٤. مقدمة في إعجاز القرآن العظيم ، للدكتور / جمال محمود الهوبي .
٢٥. تنزيه القرآن الكريمعن دعاوى المبطلين ، للدكتور / منقذ بن محمود السقار .
٢٦. المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، جمع : علي بن نايف الشحود .
٢٧. إنه الحق ، للشيخ الدكتور / عبد المجيد الزنداني .
٢٨. البينة العلمية في القرآن ، للشيخ الدكتور / عبد المجيد الزنداني .
٢٩. كنوز الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، للمهندس / عبد الدائم الكحيل .
٣٠. المُستطرَف في كل فن مُستظرَف ، لشهاب الدين الأبشيهي .
٣١. موقع مدونة الخطاط و الباحث : شاكر الأطرقجي ، على الشبكة العنكبوتية .
٣٢. ملتقى المهندسين العرب ، على الشبكة العنكبوتية .
٣٣. صفحة "جواهر الشعر الفصيح" ، على موقع التغريد بالشبكة العنكبوتية .

تم بفضل الله

محتويات الكتاب

تم بعونه تعالى

أنت دوما في تقلب أحوال طالما كنت في الدنيا ،

قل لي بربك هل رأيت شخصا ضاحكا طول عمره ، أو آخر باكيا طول عمره ؟

فسُنَّة الله في كونه التغير و التبدل ، تضحك الآن و تبكي بعد حين ،

تحزن الآن و تفرح بعد حين ،

تقوى الآن و تضعف بعد حين . . .

لا تتضجر ، فهذه حال الدنيا

تسري على الفقير و الثري ، تسري على الضعيف و القوي ،

تسري على الكبير و الصغير ،

إنها الدنيا . . .

فتدبر نفسك و حالك معها ، و حال الكون كله

ستجد التقلُّبَ سِمَتُهَا .

وليد إبراهيم دره

النقيض و الضد حولنا ، و في أنفسنا

للأستاذ : وليد إبراهيم عبد الحميد دره